شقراء الريف

١

قنديل يتحرك فوق الماء

الاسواق مكتظة والازقة غاصة بالغادين والرائحين والغاديات والرائحات .. واصفرار الاصيل يضفي على المدينة المائجة حلة باهتة تزداد قتامة بقدر ما يميل القرص الفاقع الى مهبط الغروب .. وكانت افواج من النسمات تتدافع بالمناكب متسابقة الى كومة من الانقاض بجانب سور المدينة ومشرئبة الاعناق عالقة الانظار بالافق البعيد تنظر في تطلع الى جهة البحر الذي رابطت بشاطئه الوديع بضع بواخر كانت تتراقص على سطح الماء .. وقد تجمع الناس حول رجل كان يشير بسبابته الى الجهة المسامتة للافق فتتطلع الاحداق في تلهف .. ثم ما لبثت السبابات ان صوبت اناملها نحو سماء صافية الاديم دامية الجنبات محيية مولد هلال شوال بالتهاليل والزغاريد ! فانصب الناس كالسيل على الدكاكين لابتياع لوازم العيد .. واندفع آخرون نحو بائعي الحساء يترعون على قارعة الطريق اواني الخزف الدكناء « بحريرة » ساخنة .. ووقعت فترة كانها فترة القنوت بعد آية الفجر فلم تكن تسمع خلالها الا حركة المضغ الصامت وقرقرة الحلاقيم وهي تحتسي المشروب اللذيذ .. وكانت أنوار ذابلة ترتجف « في قناديل من الفخار قد ملئت زيتا » .. وخيم الليل ولكن رواد السوق طفقوا يتماوجون

كأنهم اشباح ترتسم ظلالهـا المستطيلة علـى الاديم وفـوق الجدران التي مسها نور القناديل بانعكاسه الذابل .

فاذا ملت عن السوق بضع خطوات وجدت ساحة قد تجمعت في انحائها حلقات من البشر تسهر على ضوء فانوري باهت لتستمع الـى حكايات القصاصين بينما يعمر آخرون المساجد بالدعوات والتراويح. وكان الظلام دامسا ولكن الجو كان زكيا مرحا والنسائم تهب عليه حاملة بين ذراتها روائح فطائر العيد ومعسلاته . وكـان النـاس ينصتون في انتشاء للقصاص الذي يعمد الى تلحـين بعض القطع العاطفية مـن حكاياته علـى كمان فيتمايل المنصتون تحت نقرات الاوتـار تحمسا وطربا .

ولم ينتبه احد الى فتاة كانت تطـل من خـلال شباك مشرف على الساحة .. ولو قدر لبعض الناس مـن اولئك المنصتين ان يرفعوا ابصارهم الى ذلك البناء الشاهق الذي كان يقطن فيـه القائد ابو العباس لراوا جمـالا متفتحا رنا ببصره الذاهل نحو طرف الشارع يكاد يخرقه بحدة لحظه.. ولكن الفتاة التي تشخص فيها ذلك الجمال الملائكي الرائـع كانت تميـل احيانا بنظرهـا نحو الساحـة فتنظر ولا ترى وتسمع فلا تعي لان فكرها شارد ، غير ان عينيها الزرقاوين كانتا تترقرقان بين الفينة والفينة بدمع حار ينتشر علـى وجنتيها المتوقدتـين هياما وحنينا الى خطيبهـا الذي يكاد رحيلها الوشيك في منتصف الليل ان يعوقها عن وداعه الذي قد يكون هو الاخير .. وكادت الفتاة تستسلم للنحيب لولا صوت جوهري وصلت اليها نبراته في حدة الامر فانتفضت ومدت يدها الى طرف فستانها تمسح القطرات المتلألئة في اهدابه .. ثم خفت الى جهة الصوت في اناة مفتعلـة وتهاد خلاب ... سارت في دهليز ثم بهو مكشوف تراءى في داخله

نور مشع براق .. وقد مالت في طريقها على فستقية طفحت حافاتها المرمرية بماء بردت بـه وجنتها الملتهبة وعفـت على اخاديد الدموع .. وكان قبقابها العالي يزيد مشيتها تأرجحا وارداقها ارتجاجا ويـرن في انسجام ليخرق سكـون القصر الرهيب . مكثت عائشة خلف الباب لتستأذن ثم دخلت فاذا قاعة مربعة قد فرشت جوانبها بالطنافس الملونـة وازدانت جدرانها بالسجاجيد والمرايا التي انعكست عليها اشعة تنبثق من مصباح نحاسي تدلت فروعه كالافنان تشتعل اشتعالا ..

وكان في صدر الغرفة رجل اسمر رقيق البنية قد وخطته الكهولة ببوادر الشيب واول ما كان يسترعيك في هذا الوجه الذي حفت بـه لحية كثة عينـان نجلاوان يبرقـان بريقا وتجعدات عارضة ارتسمت في تقاسيم محيـاه عنوانا عـن الخواطر التي كانت تتجاذب فكره المكدود .. ولم يكن الرجل قد ذاق طعم النوم منذ ليلتين قضاهما في رسم خطط الاغارة على مدينة العرائش لانتزاعها من قبضة الاسبان كشقيقتها طنجة التي استعادت رواءها وبهجتها على اثر تحررها مـن يد الانجليز منذ سنوات .. وقد عادت الى مخيلته ذكريات ذلك الحصار الذي ادى بعدما استمر شهورا الى فتح المدينة التي اتخذ ابو العباس منهـا معقلا لجيوش التحريـر ... وعادت الى ذاكرته في نفس الوقت تلـك المآثر التي حققتها الجاسوسة السمراء والتي بثت الرعب في صفوف الانجليز وحملتهم على الجلاء فارين بانفسهم نحو عرض البحر .. وقد تقرر في نفسية القائد احمد ان المراة هي اقـوى آلـة للاستعلام السري فوقع اختياره لمهمة التجسس والاستخبار بين ظهراني الاسبان على عائشة التي جرب رباطة جأشهـا وقوة جنانها وبعد نظرها .. وكان قد تبنى هذه الفتاة منذ نعومة اظفارها فشحذ قريحتها ودربها على ممارسة الرماية

وامتطاء الصهوات العارية وثقف فكرها حتى حذقت اللغتين العربية والاسبانية .. وقد مهرت في هذه اللغة حتى ليظنها السامع من عواتق قرطبة .. ولم يكن يميزها عن القرطبيات الا شعرها الاشقر وزرقة عينيها المسولتين . كانت تعلم ان ابا العباس انما استدعاها ليفضي اليها بآخر تعليماته حول مأموريتها الشاقة الخطيرة في العرائش ، وكان يعز عليها ان تفارق هذا الكهل الذي كانت تكن له من الحب اشد ما تكنه لوالدها الحقيقي كما عز عليها ان تفارق خطيبها الفتى المغوار الى حيث لا تدري ما المصير وما المآل .. ولكنها كانت قوية الارادة صلبة العود فلم تكن هذه العواطف لتوهن من ثباتها ..

اجلسها القائد بازائه وربت على كتفها في حنان ابوي ظاهر ثم سلم اليها تصميما رسمت عليه وضعية القلاع والحصون في مدينة العرائش وامرها ان تتأهب للرحيل بعد ان سمعت منه تعاليق ضافية على التصميم .

ولم يكد ينتصف الليل ويلف السكون المدينة الهاجعة حتى كانت عائشة تستحث فرسها سارية خارج السور محاذية الشاطىء القفر الوديع .. استمرت في سراها بضع ساعات واذا بنور يتلجلج على سطح الماء فلم تكد ترمقه حتى نزلت من صهوة فرسها واتجهت في خطى متئدة نحو مصدر الضياء ..

٢

طوف في عرض المحيط

حلوكة دامسة تلف المحيط في سربال اسود سميك وسكون لا يخرقه سوى هدير الموج في تلاطمه الهادىء ونسيم يهب من جهة الشاطىء الذي كانت تتراءى في نقط متنائية من سهله الوطيء اشعة ذابلة يخالها الناظر نجوما قد مسكت بتلابيب الافق .

وكان المركب يمخر العباب الوديع وقد وقف الربان في حيزومه يدير الدفة وهو يغالب الكرى في تثاقل ، وكل شيء هادىء على ظهر الباخرة الا اصطفاق الرفاص في اختراقه سطح الماء .. النوتية يغطون غطيطا خافتا في نومهم العميق متناثرين كيفما اتفق فوق الممشى الخشبي المستطيل وكانت ليلة دافئة استنامت نسائمها البليلة معظم النوتية وهم لا يزالون في ثياب العمل .

وفجاة اضاءت احدى الغرف بنور باهت ثم ما لبثت بابها ان انفتحت فخرج نوتي عملاق متمططا في منامته وهو ينفث عن عينيه اثر الكرى بيدين ما فتىء ان مدهما نحو الفضاء ثم سحبهما وهو ينفخ بفيه في حركات رياضية ليستانس بها في اغلاس الصيف انتجاعا للهواء الطلق ، وكان ضياء الفجر الكاذب قد بدأ يرتسم في الافق ليبدد ذلك الظلام المدلهم رويدا رويدا وما هي الا فترة حتى استبان

المحيط في شساعته الرهيبة وظهرت الامواج في ذبذبتها المتماسكة كقطيع متراص من الغنم يزحف في سهل بلل اديمه ندى الصباح ..

وكان النوتي العملاق ـ وهو رئيس السفينة قد اتكأ على الحاجز الحديدي الذي تحف شبابيكه بظهر الباخرة ليسرح نظره في هذا الفضاء الواسع الذي يخيل للناظر اليه ان اديم الماء كاد يلتقي فيه اديم السماء، وكان الرئيس ينظر في شرود وتتزاحم في فكره خواطر فيتجاذبه التشاؤم والتفاؤل على مصير بضاعته التي جلبها من مرسيليا ليبيعها في اسواق سلا والرباط .. ثم انتفض في مكانه بغتة وحدق ببصره نحو الافق ومسح عينيه كانه لم يصدق ما رأى وخف الى غرفته فاخرج منظارا مكبرا في شكل جعبتين توامتين وصوب نظره المشدوه نحو نقطة سوداء كانت تتحرك على سطح الماء وقد خالها لاول وهلة برميلا يتقاذفه الموج ولكنه تبين ـ بعد تدقيق اللحظ ـ يدين تتحركان وتلوحان ، ثم طرقت سمعه نبرات خافتة كانها نبرات مستنجد تبدد المسافة ذرات صوته بين تيارات الهواء المتعاكسة ولكن النبرات ما لبثت ان تضخمت والشبح الملوح ما لبث ان ظهر، فاذا شخص تؤرجحه الامواج وهو ضاغط بكلتا رجليه على ما يشبه القربة فقفز الرئيس يعين الربان في اسرع من اللمح على تغيير وجهة الماخرة لانقاذ الشبح وهو على احر من الجمر للكشف عن هوية هذا الطيف الغريب الذي يغالب الموج في ساعة باكرة .. ولشد ما كانت دهشته عندما تراءت له فتاة تشرق ملامحها في فترات متقطعة من الضياء ، قد الصق الموج بجسدها النحيل فستانا يتقاطر ماء واختلت ضفائرها الذهبية المسدولة فوق صدغيها وحاجبيها وامتزجت يداها العاجيتان بارتفاء الموج تحاولان دراه في رشاقة وثبات ..

ولم يكد نظر البحار يقع على ذلك الجسم البض حتى ارتجف قلبه وارتمى في ثباته القصيف بين أثباج العباب ، وكان الربان قد قذف بحبل امسك بطرفه وارسل طرفه الآخر يتضور كالأفعى بين طبقات الموج . . وزجت الفتاة بنفسها وسبحت ثواني معدودات ما فتئت ان مسكت عقبها بالحبل وشقت الماء بذراعها الناصع لتتسلق في خفة فوق ظهر المركب . . وشعرت الفتاة بحرارة ولدتها في ساعديها حركة مستمرة ولكن رجليها كانتا شبه جامدتين لطول مكثهما تحت سطح الماء فلم تكادا تحتملانها وخرت على الارض وهي تلهث من فرط الاجهاد وارتخت مفاصل الفادة الهيفاء عندما احس جسدها بصلابة الاديم الخشبي فتهالكت على الارض . .

وكان النوتية قد افاقوا من سباتهم اللذيذ على اثر الضجة التي عقبت اكتشاف الشبح متأرجحا على سطح المحيط وتسارعوا جميعا الى الفتاة وهي ممددة في شبه اغماء . . وكان الرئيس قد خف الى غرفته ليأتي بملح انجليزي يعين انتشاقه على استعادة الوعي، ولكنه لم يكد يرجع حتى فتحت الفتاة عينيها وكأنها شعرت بوخز العيون فاحمرت وجنتاها خجلا وظلت تنتفض تحت قشعريرة برد قارس يحدثه التصاق الثياب بجسدها . . وباشارة من الرئيس حمل احد النوتية غطاء من الصوف التفت فيه وقامت تتعثر في انين . . وكان ركود قدميها وعودتهما الى الحركة المفاجئة قد ولدا فيهما تيارا كهربائيا خدرت له الاعصاب فأحست الفتاة بدبيب كدبيب النمل في الموطىء والاخمص الناعمين فصارت تتخطف الخطوات وتقفز متكئة على الرئيس الذي حاول ان يحتملها بذراعيه الى احدى غرف المركب ولكنها تمنعت وظلت تتهادى في بطء نحو غرفة فانبطحت فوق سرير اشعث دافيء لا تزال تنبعث منه رائحة النوم . . وقدم الرئيس

اليها ثيابا فاكتفت بالغطاء مترجية في رطانة اسبانية جمرات تصطلي بها ، ولم يفهم مرادها غير نوتي ما لبث ان حمل مجمارا للتدفئة وازاء وابل من الاسئلة عن هويتها اشارت في صوت متهدج الى انها اسبانية من بلاد العرائش ، خرجت تصطاد مع والدها فانقلب المركب وقذفه الماء حيث لا تدري.. فلم ير الرئيس بدا من التعريج على هذا الميناء لانزال الفتاة فيه.. ثم خرج واقفل البـاب وراءه فقامت الفتاة وحركت القفـل وتجردت من الفستان والصدرية والتبان وبقيت متسربلة بغطاء الصوف ...

ومرت نحو الساعة وهي تشعر من مضجعها الوثير بتأرجح المركب في سيره الحثيث فاذا بهـذا التأرجح يخف وبالباخرة تقف فجأة على اثر صدمة مال لها المركب فتدحرجت الفتاة من اعلى السرير ..!

٣

طلقات ...

تركنا عائشة الجاسوسة السرية التي اوفدها القائد ابو العباس للاستعلام في مدينة العرائش حيث الاسبان تمهيدا لانتزاعها من قبضتهم وقد وصلت الى الساحل بعد منتصف الليل فشاهدت نورا بعيدا يتأرجح فوق الامواج فعلمت انه القارب الذي ينتظرها لنقلها الى مياه العرائش حيث قذفها بين اثباجه عندما شاهد مركبا يسير في غلس الفجر محاذيا الساحل الهاجع ... ولم يكد ربان القارب يطمئن على حالة الفتاة التي استعانت على مغالبة الموج ومواصلة الطفو بقربة مملوءة بالهواء ـ حتى لوى عنان مركبه وعاد ادراجه من حيث جاء ثم اختفى وراء حشفة تبعد قليلا عن الشاطىء المليء بالصخور الناتئة وظل يراقب الفتاة باحتراس حتى خفت الباخرة وانقذت عائشة من وضع حرج لم يحملها على ولوجه الا قوة ارادتها واستسهالها الصعب في سبيل قضية لا تتردد في بذل حياتها من اجلها راضية مسرورة .. وكان متبنيها القائد ابن حدو قد طعم تربيتها بثقافة وحنكة .. كانت الفتاة تعلم ان وجودها في بيت قائد عسكري يثق بها ويركن اليها لا بد ان يزج بها في مغامرات ليست من قبيل المعتاد . فانكبت على سير بطلات العروبة والاسلام تستجلي منها آيات الفتوة والتضحية في سبيل الوطن والدين فصلبت ارادتها وقوي جنانها واصبحت الذ ساعة لديها هي تلك التي

سيقدر لها فيها خوض المعمعة وامتطاء متن الاخطار ... وكيف لا وهي ريفية عريقة قضت حياتها الاولى في الهواء الطلق بين وعورة المنبت وقساوة الطقس وشظف الحياة بعيدة عن دلال الحواضر وتفسخ المدن .

كانت عائشة قد آوت الى احدى غرف المركب الفرنسي الذي كان متجها نحو مصب ابي رقراق فمال الى ساحل العرائش لينزل في مينائها الغادة لقيطة المياه .. ولكن المركب اصطدم في مدخل الميناء بصخرة لم ينتبه الربان الى نتوئها الذي لا يكاد يعلو مستوى الموج فمالت الباخرة على جنبها وارتج النوتية مضطربين خشية ان يكون الارتطام قد احدث في المركب ثقبا ينفذ منه الماء .. ومن حسن الحظ ان الساحل كان على مسافة بضعة امتار .. ولم تكد عائشة تغادر غرفتها حيث كانت تصطلي وتجفف ثيابها حتى شاهدت النوتية يذهبون ويجيئون في اضطراب هذا يحمل خشبا وذاك ادوات وآخرون يتسارعون الى باطن المركب حيث بدا الماء ينفذ من شق مستطيل .. وما هي الا لحظات حتى كان الجميع قد نزل الى قعر السفينة عدا عائشة التي ابرقت اسرتها وسرى في لحظها المسهد بصيص خاطف وانعطفت نحو الفرفة ثم خرجت متسللة نحو الحاجز الحديدي حيث ربطت حبلا تمنطقت بطرفه ولفت فستانها حول عنقها ثم نزلت الى البحر وسبحت نحو الشاطىء في حذر.. وكان مربط المراكب بعيدا لان المكان كثير النتوء لايصلح لرسو البواخر فلم تصطدم الفتاة الجريئة في هذا السهل الرملي بأحد .. اختفت وراء احدى الصخيرات واندست في فستانها فأحست بدفء ثم انبطحت فوق العشب للاستجمام .. وكانت تغالب النوم الذي مسك بمعاقد اجفانها ريثما تبتعد عن المركب اتقاء مضايقة رئيسه بالاسئلة

المحرجة .. وكانت تخشى ان يلح على مرافقتها الى منزلها فلنا منه انها من سكان المدينة بناء على الحكاية المختلقة التي قصتها عليه .. ثم جست جيبا في صدريتها المبطنة فانفرجت اسرتها وافترت شفتاها الموردتان عن ابتسامة رقيقة خلابة . وكان الجو باردا وقرص الشمس لا يزال مختفيا وراء الآكام وخافت ان يمر صياد او نوتي فيستغرب وجودها في مكان قفر في غبش الفجر فانسلت وهي تراقب المركب الذي كان الهدوء مخيما فوقه الا طرقات يتردد صداها بين الفينة والاخرى وتصعد من تجاويف المركب خافتة، ومالبثت الفتاة ان دخلت الى خميلة وطيئة الاشجار متماسكة الافنان خالية من نامات الحياة اللهم الا طيور تغرد في اعشاشها ونسيم يتخال تياره فجوات الادواح فيفري بالتمدد والنوم .. وفعلا استلقت عائشة على ظهرها واطلقت يديها في ارتخاء لذيذ واستسلمت للتفكير الوديع حتى اطبق النوم اجفانها فاستغرقت في سبات عميق تداركت به بعض الارق الذي سهدها خلال ليلتين .. وكان محياها الوضاء ينفرج بين آن وآن ثم ترتسم على تقاسيمه المتناسقة تجعدات عنوانا عن استمرار الفتاة في الاهتمام وهي في عنفوان الاحلام .. ولا شك ان الابتسامات التي كان يفتر عنها ثغرها اللؤلؤي الوضيء هي نفحة من طيف خطيبها الجميل الذي قد يكون الم بمخيلتها او انعكاسة لاشعة النصر القريب ..

ظلت عائشة نائمة الى ما قبيل العصر حيث افاقت مذعورة على صوت طلقات نارية كان طنينها لا يزال يرن في صماخها اللدن وقد حسبت اول الامر ان الطلقات من وحي خيالها ولكن الصدى تردد من جديد فقامت مسرعة وتسلقت شجرة تنتظر ما يكون .

... في دير الراهبات

مالت الشمس من اطراف السور ينحدر قرصها الدامي نحو الغروب وكانت الريح تهب باردة من جهة البحر فتلطف ذلك الجو الذي ظل يعتلج من شواة القيظ معظم النهار وكان الناس يغدون ويروحون في هدوء والنسوة يتحدثن في ابواب المنازل في رطانة والرجال يلعبون في ساحات معبدة بكور من حديد بينما يتجه صيادون نحو السوق حاملين في سلالهم اسماكا معروضة للبيع وهم يلبسون صدريات قد احمرت من دم الاسماك وهم حاسرو الرؤوس شعث الشعر قد تبهرجت سراويلهم المستطيلة من طول ما رقعت .. وقد تشكلت وسط ساحة المدينة حلقات من العاطلين للاستماع الى احد المغنين وهو يلحن على قيثارته انغاما تحرك العواطف وتهيج الشعور وكان الولدان والكهول والشيوخ والنسوان يستمعون وكأن على رؤوسهم الطير يذرف بعضهم الدمع من التأثر ، ولم يكن اللحن يمتاز كثيرا عن « التويشيات » الاندلسية أو عن « الصيكة » ، ولم يكن الزائر لهذه المدينة ليظن انه ببلدة مغربية لوفرة الاسبان الذين كانوا يملأون جوانبها لولا منارات ترتفع في علو شامخ تعشش فيها الغربان وترتسم على الاديم ظلالها المستطيلة التي يضخمها ميلان الشمس نحو البحر ..

ها هو الليل قد أقبل وها هي ذي افواج الناس تتجمع لتسمر زرافات زرافات وها هو سوق المدينة يقفر والدكاكين تقفل والشوارع تكاد تخلو الا من طيف يتسلل على مهل في لستر عن الانظار حتى لا يثير ريبة في نفوس المارة المتباطئين.. كان الطيف مشيقا يكاد يغطي ملامحه سجاف الظلام لكن مشيته المتئدة كانت تتخللها فترات من التهادي لا تلبث ان تعود للاتئاد حتى ليخيل للناظر اليه من خلال الحلوكة انه فتاة تترجل لا سيما وان الاشعة النافذة من خصاص بعض الابواب تكشف بنورها الخاطف سواد فستان مشوب ببياض ..

كان الطيف يسير ثم يتوقف ثم يستأنف السير متفحصا ذات اليمين وذات الشمال كأنه يبحث عن شخص او كأن الدروب المتشابكة قد اشتبهت عليه وزادها ارتباكا في ذاكرته هجوم الظلام .. ولم تنتبه الفتاة لشيخ قوست ظهره السنون كان يترسم خطاها منذ غادرت الخميلة غب الطلقات النارية التي ايقظتها مذعورة من سباتها ولم تكن تلك الطلقات سوى مناورات صياد يتدرب على اقتناص الارانب في غابة مجاورة وقد استراب ذلك الشيخ بعد ان شاهد شبح امراة تهرول بين الاشجار فأتبعها نظره الحاد حتى وصلت الى ناحية السور حيث نفضت عن ثيابها وشعرها الاعشاب العالقة واتجهت في اناة نحو مدخل المدينة المواجهة للبحر حيث وصل الشيخ في نفس الوقت بعد ان انعطف عن انعراجة قصيرة وكان يسترق النظرات الى الفتاة متظاهرا بمواصلة السير ولحظه لا يكاد يحيد عنها لمحة.. دخلت عائشة الى المدينة فلم تتمالك عن الاضطراب لانها تذكرت ان هذه هي الخطوة الاولى في طريق مغامرات قد تدوم شهورا وقد تتخللها اهوال واخطار ولكنها ما لبثت ان تماسكت فتباعدت

خطاها في سير حثيث اضطر الشيخ المتجسس الى الهرولة لمطاردة الفتاة .. وكانت عائشة قد رات الشيخ صاعدا من المنحدر المؤدي للميناء فلم تعره كبير اهتمام وكادت تنساه لولا انها توقفت عن السير في عتبـــة احد الدروب وادارت راسها فرمقت الرجل ... شعرت به يتعقبها وكانت تعلم ان للموانىء حراسا يختارهم الاسبان مـــن بين الصيادين الذين عاقهم الهرم عن الخروج الى عرض البحر وقد يكون هذا منهم ولكن عائشة واصلت سيرها في مشية طبيعيـــة مراقبة من طرف خفي الظل المتحرك وراءها ... تضايقت واحست كأن رجليها بداتا ترتبكان وتصبب العرق من جبينها وسرت في جسدها البض قشعريرة لا عن خوف وانما هو حنق وغيظ .. وكـان الزقاق قد خلا ونوافذ الدور قـد اوصدت وانقطع السير وانحنت تتظاهر بربط حذائهـا .. واصلت انحناءتها فاضطر الشيخ الى مواصلة سيره لئلا يثير الريبة في نفسها ولم يكن موقنا بانها اجنبية عن المدينة وقد خشي ان هو ضبطها واستفسرها عن هويتها ان تكون خليلة لاحد الوجهاء او تنتمي لاحدى العائلات العسكرية الشديدة البأس بين هذه الجالية المدللة فيقـــع في محظور فاكتفى بتعقبها من بعيد ولكن توقفها افسد عليه خطته .. تابـع الشيخ خطـاه دون ان يلتفت او يلوي علـــى شيء وراءه فاغتنمت عائشة هذه الفرصة وانعطفت نحو زقاق فرعي لم تكد تدخله حتى استحثت خطاها وتوغلت في ازقة اخرى تتداخل دون هدف معين اللهم الا الابتعاد عـن ذلك الشيخ الخبيث الذي ضايقها .. طفقت الفتاة تمشي بعد ان لفت حول راسها قطعة من حرير كانت متمنطقة بها تحت الفستان وشمرت عن ساعدها ودست في جيبها ذلك الموسلين الشفاف الذي كانت تغطي به كتفيها فتغيرت سحنتهـا وبات مـن

العسير على متعقبها استذكارها اذا ما لاحظها مرة اخرى وكان القلق والحيرة قد اخذا بتلابيب الفتاة التي لم تكن تعرف اين تذهب ولا الى اين تأوي وكان يزيدها حرجا الجوع الذي بدا يقطع امعاءها وخوفها ان يضبطها عسس الليل فيفتضح امرها.. وكانت قد وصلت الى درب تكاد جدرانه تتماسك لضيقه فطرقت سمعها رنات وشاهدت من بعيد اطيافا بيضاء تدخل الى بيت وطيء تعلوه منارة فانسلت بينها وهي لا تعرف ماذا سيعترضها في هذا البيت الهادىء الخافت النور .

*

فسحة ضيقة الارجاء تتفرع عنها دهاليز قد علقت بمداخلها وتدلت من سقوفها قناديل يزيد ذبول نورها المكان رهبة وكان الهواء ينفذ من تلك السراديب رطبا باردا ليتجمع وسط الدير حيث اقيم معبد تعلوه دمية العذراء .. وكانت الجدران مغطاة بصور تمثل رجالا ذوي شعور شعثاء ونساء عاريات وطيورا في صور انسان تجثو على طفل رضيع في شفقة وحنان .. وكانت الراهبات قد اطلن الركوع خاشعات في ثيابهن البيض وقد شحبت وجوههن وذبلت اعينهن وارتخت مفاصلهن في استسلام .. وكان بينهن الصبايا الفاتنات والاوانس العانسات والعجائز اللواتي انتجعن الراحة في هذا الدير البعيد عن ضوضاء الحياة وفتنة الناس .. وكانت ترتسم على الوجوه تحت نور القناديل الباهت سمات تتجلى في بعضها معاني اليأس والانصياع لمجريات القدر وينبعث من بعضها الآخر بريق الطموح الى

الحياة ومفاتن الحيـــاة واعتـلاج الحواس بأوار الفتـوة والشباب.. كانت جسوم الكثيرات منحنيات وافكارهن تسبح في عالم الاحلام المادية وتعلق في الحاح بالعشيق الناكث او الخطيب النافث او بالحبيب الذي عفت عليه ريب الدهر .. وكاين من فتاة لم تترهبن الا تلبية لخاطر عارض يتلقفهـا فتتلقفه ثم لا تلبث ان تندم بعد ان تزج بنفسها في عالم كله نور وكله ظلام .. ولو تتبعت البواعث التي حدت هذه او تلك الى اعتناق الرهبنة لظفرت بصورة تكاد تكون جامعـة لشتى مآسي هذه الحياة الغريبة الصاخبة بألوان الفنـون واصناف الجنون .. ولكن بين هؤلاء الراهبات فتـاة ليست كالفتيات وصبية لم تعجن طينتها مـن نفس الجنس الذي عجنت به طينة الاخريات .. كـانت تسجد لمريم وقلبهـا يسبح الله .. وكان لسانها يستنجد بمريم وروحها عالقـة برب مريم .. كانت خواطر حـارة يكاد يطفح بهـا فؤادها الدامي ولكنها تتجلد مخافة الافتضاح.. وكان ضميرها يحدثها بان تصرخ في وجه عوانس خاشعات بالنهار متوحشات في الليل حينما يحتضنهن دفء الفرش وتنبثق من بين جوانحهن نزعات الشذوذ.. كانت مؤمنة برب موسى وابراهيم موقنـة برسالة محمد .. ولكنهـا كانت تكبت عواطفها وتغـالب شعورها الجامح لئلا تطردها رئيسة الدير فتقـع في قبضة ذلك الشيخ الغريب او بين اظافر ذئاب كشرت عـن انيابها لانتهاك الاعراض في مدينة فقدت حمى الاسلام ففرت بشرفها الى حيث الامن من عبث الرجـال .. فتاة من آل البيت عاشت ما شاء الله في حضن والدين همهما اقامة الصلوات ومواصلة الدعوات في نجوى الليل وغبش الاسحار . وعادت فجأة الى ذاكرتها قصة فتاة من ذويها كاد يودي بعرضها فتى اسباني ماكر من اولئك الذين كان همهم في حواضر المغرب

المحتلة الاغراء والاغواء .. نعم كانت ابنة عمها ذات أصيل تتفسح وراء احدى الجنينات تتملى مع خادمات اسرتها بشذى الزهر في هواء طنجة الطليق ، وقد اصفر قرص ذكاء واعتلجت جوانبه بحمرة فاترة فانعطفت مع صواحبها نحو طريق العودة الى الدار – وبينما هي في منعرج انبعث من خلال احدى الحظائر فارس ملثم حسبته فتاة لاول وهلة .. ولم تكن العلائق اذ ذاك قد توترت بعد بين المغاربة والاسبان المنتشرين على طول الساحل واللهجة الاسبانية منتشرة في انحاء الريف واحواز القلاع التي يحتلها الاسبان .. فتحدث الفارس في رطانة رخوة ورنة ناعمة فازدادت الفتاة وجواريها اطمئنانا الى انوثته .. وكانت بعض العائلات الاسبانية التي ينبض في عروقها دم عربي ما زالت تحتفظ ببعض مظاهر الحياة الاندلسية فكنت ترى بعض النسوة يحتفظن بنزعات وراثية لا تكاد ماهيتها تستبين .. وقد زادتهن الحياة وسط المسلمين تشبثا بتقاليد آلية لا يدركن مغزاها وكانت الفتاة تحدق الاسبانية فتجاذبت الحديث مع الفارسة المقنعة التي حداها اللطف والفتوة الى دعوة الصبية للتناوب معها على صهوة الفرس فتمنعت هذه وازاء الحاح صاحبتها اصرت على عدم الركوب الا رديفة للفارسة الكريمة فامتطيتا الصهوة وسارتا خطوات كانت عين الفارسة المقنعة لا تكاد تتحول عن الفتاة وهي تحادثها والخادمات يتعقبنها من الخلف .. وكانت الفتاة بارعة الرواء فارعة القد سمراء البشرة نجلاء اللحظ مدلهمة الشعر يكاد هيكلها يذوب رقة وبعد لحظة احست الفتاة بحوافر الفرس تتباعد تحت المهماز وبالمسافة تتناءى بينها وبين صواحبها وبيد حديدية تسد ثغرها الوضاء بكمامة وتبادر يديها بكتاف وثيق ثم اطلق الفارس العنان وانطلق يعدو بين ثنايا الظلام الذي بدا يخيم بسجفه الكثيف .. واغمي على الفتاة عندما قرب الفارس من

خيشومها علبة كريهة الرائحة .. وافاقت مارية ـ وهو اسم الفتاة ـ فوجدت نفسها في حجرة ضيقة داخل منزل سامق الجدران مقفر الاركان من بيوت العرائش فأحست بحرج موقفها .. ولبثت في هذا البيت ما شاء الله ان تلبث وهي تراوغ الفارس الاسباني الذي اختطفها ممنية تارة متمنعة اخرى وهو يلاطفها تزلفا الى قلبها فعاجلته ذات ليلة بمقبض معقوف على راسه ففقد وعيه وخرجت تعدو في جنح الظلام حتى طرق سمعها رنين فقصدت مصدر النبرات فاذا بها داخل دير ... ومرت عليها اسابيع وهي حيرى لا تدري ماذا تصنع وقد فكرت آخر الامر في الفرار الى طنجة حيث قطنت خمس سنوات على اثر تحرير المدينة .. وكانت في هذه الليلة تصلي وفكرها تائه يرسم خطة الفرار فاذا بفتاة تتسلل من احد الدهاليز ولم يكد نظر مارية يقع عليها حتى انتفضت من مكانها وهي تحسب نفسها في عالم الاحلام .

٥

وضع حرج ..

استمرت عائشة لحظات معدودات غارقة في ذكرياتها فانتبهت فزعة ولكن الراهبات كن في شبه جمود من آلية الدعاء او رهبة الليل فاهتبلت هذا الوجوم وانحازت الى ركن للاستجمام. ولم يكد نظر مارية يقع على عائشة وهي متسللة في غبش النور الذابل حتى انتفض جسمها وكادت تناديها باسمها لولا خاطر الهامي كبت نداءها فانسلت من بين المصليات واتجهت نحو عائشة وهي لا تكاد تصدق عينيها المحمومتين من السهاد .. ولم تكن عائشة بأقل دهشة من ابنة عمها مارية التي تحدث الناس بان فارسة اسبانية ملثمة استدعتها للركوب معها فجمح بهما الجواد وضلتا الطريق وارسلت السلطة حرس التفتيش الى النواحي القريبة فلم تعثر لهما على اثر وانطلقت السنة الناس بالتعاليق .. وما زالت أمها المسكينة تتضور على فراش المرض منذ ان غاب عنها شخص ابنتها الوحيدة بذلك الشكل الغريب .. ووقفت الفتاتان معقودتي اللسان من التأثر لا سيما عائشة التي حارت في تعليل مظهر قريبتها المتزملة في زي الراهبات .. وظلتا واقفتين دون ان تنبسا ببنت شفة .. واخيرا أشارت مارية الى ابنة عمها بالذهاب معها الى حجرتها فسارت عائشة في اعقابها وهي لا تعي ما تفعل من فرط الذهول .. لقد كانت تنتظر كل شيء الا العثور

على مارية في هذا البيت الوطيء المظلم .. يا ما أروع هذا الاتفاق .. كم ذرفت عائشة من الدمع الحار غب فقدان رفيقتها الجميلة الوديعة .. وها هي ذي امامها لحما ودما فما هذا ؟

ولم تكد عوامل الدهشة تنقشع حتى تعانقت الفتاتان وعيناهما تسحان دموع الغبطة ، ثم استعادتا توازنهما بعد صدمة المفاجأة فقصت كل منهما حكايتها على الاخرى ولم تكد مارية تعرف سر مأمورية صاحبتها حتى ابرقت اسرتها وسرت في اهابها الغض قشعريرة الحماس ثم قامت وقبلت صديقتها وهي تقول : (.. الان آمنت بان الله قد مهد باختطافي لاكون لك عونا في هذه الرسالة المقدسة .. فلتكوني مطمئنة بانني لن ادخر وسعا في مقاسمتك المتاعب والاخطار ..) وفيما كانت مارية تتكلم وعيناها تشعان بحرارة التأثر اذا بطرق خفيف على الباب وبصوت ناعم يصل خافتا من خلال الخشب الصفيق وكانت مارية قد اوصدت الباب امعانا في الاحتراس وتحاشيا لانتباه (اخواتها) الى وجود فتاة اجنبية عن الدير داخل غرفتها لما يستلزم ذلك من عقوبة .. ولم تكد مارية تسمع النقر حتى اقشعر بدنها وتصبب عرقا وعلت محياها صفرة الموت ـ وكأن عائشة شعرت بحرج الموقف فانبطحت على ظهرها واندست تحت الفراش وحبست انفاسها .. فهدأ روع مارية التي لم تكن تمتاز بما لدى عائشة من سرعة الخاطر وحضور البديهة وتوقد الذكاء .. فتظاهرت بالتناوم واجابت (اختها) الواقفة خلف الباب بانها قد آوت الى الفراش وتجردت من ثيابها وكانت تتكلم وهي تنسلخ من الرداء الابيض لتندس تحت الغطاء .. ولكن (الاخت) الثقيلة الحت فقامت مارية تتعثر في ذيل منامتها متظاهرة بغلبة النعاس وفتحت الباب

وانتصبت في خوختها قبالة الفتاة تكتفي بمحادثتها من الخارج كما تفعل احيانا ولكن هذه دخلت وجلست على حافة السرير وهي تنتفض متلعثمة في كلمات متقطعة فهمت مارية منها انه خيل لهذه الاخت وهي تتأهب للدخول الى غرفتها كان طيفا قد تسلل داخل الدهليز فجمد الدم في عروقها ثم ما لبثت ان شاهدت طيفا آخر وهن الحركة قد اتجه نحو باب غرفتها فتقر نقرا خفيفا ما لبث ان تضخم عند ما اصرت الاخت على التزام الصمت وهي تنتفض انتفاضة العصفور بلله القطر وعندما يئس هذا الشخص الذي حسبته شيخا طاعنا لتثاقل خطاه ذهب الى حال سبيله ولعله توغل داخل الدير ليسأل عن رئيسته ... وكانت كل من عائشة ومارية تستمعان الى هذا الحديث وهما تكبتان اضطرابهما فقد شعرت عائشة وهي تحبس انفاسها تحت السرير الوطيء ان الشيخ لم يكن سوى ذلك الحارس الذي طاردها خلال الظلام.. كما خشيت مارية ان يكون ذلك الطيف المتسلل هو طيف مختطفها الذي توله بها فهام على وجهه يبحث عنها في كل مكان .. وقد صدق حدس كل من الفتاتين فان الشيخ المتجسس قد اطلق ساقيه للريح بمجرد ما غاب عنه شبح الفتاة فاخترق الازقة والدروب وساقته الصدفة الى باب الدير فخطر في باله ان يسأل رئيسته هل لجات اليها فتاة هذا الليل ... اما الفارس الاسباني الذي يبحث عن مارية فانه انسل بين الدهاليز حتى وصل الى الساحة الداخلية فراى الراهبات مطرقات برؤوسهن الى الارض .. ولما لم يجد بينهن من يبحث عنها عاد ادراجه فلمحته الاخت التي كانت قد تنبهت الى انسلال مارية فتبعتها بعد حين .. ومن حسن الحظ انها لم تشاهد شبح عائشة ...

٦

سعد في الميدان

.. كان سعد شابا ريان الفتوة مكتنز العضلات اسمر اللون وكان حاسر الراس يلبس صدرية يتصل اسفلها بسراويل طويلة على خلاف اقرانه الذين كانوا يغطون رؤوسهم بالشواشي الحمراء ويتسربلون بمنصورية حريرية بيضاء وكان قد خالط الاسبان كثيرا فصار يفتل على غرارهم شاربه الدقيق ويرسل شعره الاسود الى ما تحت صدغيه ..

استعجله القائد ابن حدو ذات يوم للذهاب في مأمورية الى مكناس فأسرع يعد أهبة السفر وفي فجر الغد كانت قافلة مؤلفة من سعد واربعة خفراء تسير محاذية البحر على صهوات افراس مطهمة ... وكان القوم يواصلون السير طوال النهار ثم يضربون خيمة في العراء او ينزلون ضيوفا في احدى « نوايل » البادية اذا خيم الليل ، ومرت خمسة ايام قضوها في سير حثيث تتخلله ضيافات يقيمها رعايا السلطان وفي زوال يوم الخامس تراءت لهم اسوار مدينة سلا فاستحثوا مطاياهم حتى دخلوا مدينة وادعة قد اكتظت اسواقها رغم ضيقها بالغادين والرائحين وقد ادهشهم كثرة اليهود والمسيحيين وتنوع المواد المعروضة للبيع مما يندر وجوده في باقي مدن المغرب .. واتجهت القافلة نحو منزل القائد عبد الله بن عائشة اميرال البحر وشيخ القراصنة حيث حطوا ركابهم انتجاعا للراحة والاستجمام ، وكانت بين

عبد الله والقائد ابي العباس صداقة فلم يكد الاميرال يعرف سعدا حتى سهل ورحب ودعاه الى المبيت .

وبعد اداء فريضة الظهر في المسجد الجامع الفسيح تناول سعد الفطور على مائدة القائد الذي دعاه بمجرد انتهاء الغداء الى مرافقته للميناء حيث كانت مواخر القرصنة راسية وقد حداه الى النزول بنفسه للمرسى نبأ وصول سفينة من مرسيليا مشحونة بمختلف البضائع.. وفيما هما سائران سأل سعد صاحبه عن سبب تكاثر « الذميين » فاخبره ابن عائشة بان المسيحيين يفضلون المقام في سلا لاستيطان قناصل دولهم بها وان بالمدينة الان قناصل هولندا وانجلترا وفرنسا اما اليهود فمعظمهم قد هاجر من الاندلس فرارا من اضطهاد الاسبان وقد تأسس نظام جمهوري منذ بضعة عقود من السنين بمعونة الاندلسيين من المسلمين الا ان المولى اسماعيل أبقاه الله ونصره اعاد البلاد الى وحدتها وارجع سلا وحوزها الى حظيرة مملكته ، ثم عاد ابن عائشة الى الحديث عن القناصل ودولهم فأسر في اذن سعد ان المولى اسماعيل خاطبه اخيرا بتعيينه سفيرا موقتا للمغرب في باريس لمفاوضة لويس الرابع عشر في شأن تبادل الاسرى غير ان السلطان يفضل تأجيل هذه السفارة الى ما بعد تحرير العرائش واصيلا من قبضة الاسبان ، وقد وفد الى المغرب منذ ست سنوات اول سفير فرنسي وابرمت بين البلدين معاهدة قبل دخول جيش السلطان الى طنجة بسنة واحدة والفرنسيون قد تزايد عددهم بهذه المدينة لا سيما بعد ما وقع العثور حوالي ١٠٤٩ اي منذ خمسين سنة على معدن القصدير في احوازها وقد تنبه الانجليز ايضا الى ان (ملالح) سلا القديمة وسلا الجديدة (اي مدينة الرباط) وكذلك منجم القصدير أوفر انتاجا من مجموع الملالح ومناجم القصدير الانجليزية ...

كان القائد يتحدث وسعد يصيخ بسمعه حتى وصلا الى المرسى الواقعة على مصب ابي رقراق فاذا سفن راسية على رصيف سلا الجديدة واذا مركب ينتظر في عرض البحر الاذن بالدخول الى الميناء ، وقد استغرب سعد كثرة المواخر والقوارب وعبر لرفيقه عن دهشته ولكن القائد اجابه بانه لا داعي لهذا ما دامت سلا هي اعظم المراسي المغربية تليها مرسى اسفى من الناحية التجارية .. وكان عدد المراكب المرابطة في البحر اثنى عشر كل واحد منها مجهز بما يتراوح بين ثمانية وعشرين مدفعا .. ومعظمها في ملك السلطان الا واحدا وهو اجملها واقواها كان في ملك القائد وقد رجعت هذه السفن من عرض البحر حيث تقضي الشهور ولا تعود الا في الفصول الباردة الا انها رجعت هذه المرة بمناسبة رمضان وعيد الفطر .. وقد ترابط احيانا بمراسي تطوان وازمور واسفي او في مصب واذي تهدارت قرب طنجة.. وما ان وصل القائد الىمربض القوارب حتى حف به النوتية يقبلون يديه فاستدعى احد قواد البحر واستقل معه برفقة سعد متن قارب نقلهم الى حيث وقفت الماخرة التجارية التي يظهر انها فرنسية الجنسية نظرا للون الراية المرفرفة على صواريها .

ولم يكد قارب القائد يصل الى المركب حتى حياه بطلقات مدفعية تلقت جوابها الصارخ من مدافع الميناء ثم صعد القائد صحبة رئيس البحارة الى ظهر المركب واتجه نحو مستودع البضائع بين صفوف النوتية الذين وقفوا ذات اليمين وذات اليسار رافعين ايديهم بتحية ممثل السلطان ، ثم استقبل ربان السفينة القائد بحفاوة بالغة وقدم اليه هدايا من مختلف انواع البضائع التي جلبها برسم التجارة وكانت بينها لفائف رقيقة من الحرير والصوف

والمطرزات المختلفة الاشكال والمصنوعة في انجلترا وهولندا وبريطانيا ومدينة روان من انواع الموسلين المستعملة للمنصوريات والعمائم ثم انواع التوابل والعقاقير والقطن وتبغ البرازيل وبوردو والسكر والكبريت والاصباغ المختلفة وانواع الورق والفولاذ والحديد والرصاص والاواني والسكاكين والمقصات والابر والاقفال والمرايا والمشط العاجية.

ثم تلقت السفينة الاذن بالدخول الى الميناء بعد ان ادت الرسوم الجمركية فوجدت في انتظارها افواج التجار الذين جاؤوا حاملين انواع المصنوعات التقليدية والمواد الاولية المغربية لاستبدالها فكنت ترى على ارصفة الميناء اكواما من الجلود المدبوغة والزبيب وصفائح النحاس والصمغ والقصدير والاصواف والتمر وريش النعام ومسحوق الذهب.. وكان سعدا استغرب عدم وجود الماشية والحبوب بين المواد التي ستصدر الى الخارج ولكن القائد اجابه بان الدولة المغربية تحظر تصدير هذه المواد اللهم الا في مقابل المتاد الحربي .

ثم عاد القائد ورفيقه الى الدار حيث بات سعد وهو مصمم العزم على استئناف رحلته نحو مكناس عاصمة الملك، ولكن الكرى جافى عينيه المحمرتين فبات يتصور على فراشه وصورة خطيبته شقراء الريف لا تبرح مخيلته المكدودة .

٧

رحلة على ضفاف المحيط

غادر سعد منذ خمسة ايام مدينة طنجة في مهمة لمدينة مكناس عاصمة الملك ولكنه لم يكد يصل الى «حمرية» حيث تتكاثف نحو المائة الف شجرة من الزيتون حتى علم ان السلطان ذهب الى ناحية مراكش ليتفقد « الاحوال » فواصل سعد طريقه دون ان يدخل المدينة .. وقد لاحظ عن بعد قصور « الرياض » السلطانية في فخامتها الباذخة وافواج الاسرى الاوروبيين يشتغلون في ترخيم الاجنحة التي لم يتم بناؤها بعد ولكنه استحث السير لان مأموريته مستعجلة لا تقبل التأخير وبعد يومين وصل الى سلا حيث تركناه في ضيافة القائد عبد الله بن عائشة ..

لم يكد ينبلج عمود الصبح حتى هب سعد من الفراش الوثير وهو يترنح بعد ليلة قضاها بيضاء مفكرا في الاخطار التي تتعرض لها خطيبته عائشة بين براثن الاسبان في مدينة العرائش . وتجرع كأسا من الشاي الانجليزي الاخضر مع فطائر معسلة ثم ودع الاميرال وامتطى مع اصحابه صهوات الافراس متجها نحو ابي رقراق في غبش الفلس فتراءت صفحة النهر الناصعة تتماوج في هدوء رهيب ... استقل متن مركب ضخم نقله مع فرسه الى الضفة المقابلة ثم عاد المركب لينقل باقي الافراس والخفراء وعرج الركب على

مدينة « سلا الجديدة » (اي الرباط) التي كان معظم سكانها من مهاجري الاندلس المسلمين وقد لقي في طريقه افواجا من الناس نازلين من قصبة الاوداية حيث ادوا صلاة الصبح وقراوا القرآن بمسجدها العتيق وكان معظمهم متأبطا لبدة حمراء قد غطى راسه بشاشية قانية لفت حولها عمامة وتدلت من ورائها عذبة زرقاء على الشكل الذي كان معروفا بالاندلس.. وكان بعض فتيان الرباط حاسري الرؤوس يتدلى شعرهم الى الصدغ في تصفيف وترجيل هي من رواسب موضة (زرياب) مغني الاندلس . وما ان وصل الى القصبة حتى تذكر ما حكاه له القائد ابن حدو عن سلا الجديدة من انها اجمل واطيب مدينة على الساحل الافريقي لاعتدال هوائها وخصب ارضها وعذوبة مائها (١) وكانت القصبة محصنة قد حفرت حولها خنادق وبجانب القصبة مدينة وادعة لا تكاد تحس فيها بنأمة الحياة وامام الساحة الواسعة المقابلة لمدخل القصبة افواج من رجال المدفعية بازيائهم القانية يتدربون على الرماية في « جبادوليات الطبجية » .. صعد سعد الى القصبة فأشرف من سورها الغربي الوطيء على بحر هادىء تتذبذب امواجه في ارتفاء واطل على الميناء فاذا ارصفة قد اصطفت على طولها نحو الخمسين مركبا من حمولة مائتين الى ثلاثمائة طن ، واذا القوارب تتزاحم لتفرغ شحنات الاسماك المختلفة .. وقف سعد مدة فأرسل طرفه ذات اليمين وذات اليسار مشدوها تحت روعة المنظر البديع .. وتراءت له في ناحية الشمال سلا القديمة محاطة بأسوار مهدمة تنفذ من أبوابها الواسعة العربات والرواحل وتحف

---

(١) هكذا وصفها الرحالة الفرنسي طوماس لوجندر قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة .

بها مروج خضراء يفصلها عن حدائق جارتها سلا الجديدة نهر صغير بدات اشعة الشمس تنعكس فوق سطحه الوضاء .. ثم شاهد من بعيد منارة سامقة (منارة حسان) فسأل عنها احدالمارة فأخبره بانها من بناء السلطان ابي يوسف يعقوب المنصور وان المائتي سارية التي تتراءى من بعيد كان عددها يبلغ اربعمائة في الأول ...

شعر سعد بأشعة الضحى تلفح وجهه فتنبه الى نفسه المأخوذة بروائع الطبيعة ولم يجد بدا من تحريك راحلته ميمما شطر الجنوب .. وكان الخفراء الاربعة يسيرون في عقبه على أحصنة عارية وقد تمنطقوا بخروز مملوءة بالبارود والدينار ووضعوا على عارضة الصهوات بنادق قد حشيت رصاصا.. ولم يكونوا يخشون اعتداء لأن الامن كان قد ضرب اطنابه في عهد المولى اسماعيل بجميع انحاء البلاد اللهم الا في أحواز العرائش وأصيلا اللتين ما زالتا في قبضة الاسبان. وسارت القافلة محاذية الساحل في طريق صلبة قد عبدها كثرة مرور القوافل واحاطت بها خمائل خضراء متهدلة الافنان يهب بين أشجارها الوطيئة نسيم البحر فيحرك الاغصان ويثير أغاريد العصافير .. كانت الشمس حارة والجو قائظا لا تلطفه الا النسائم الباردة التي تهب من جهة المحيط المتلاطم الامواج .. وكان الشاطىء خاليا الا من نوابل وخيام تنتشر هنا وهناك على بعد كبير من رطوبة البحر .. ولم يكد ينتصف النهار حتى شاهد سعد نقطا سوداء تتحرك في الافق ما لبثت ان تضخمت فاذا رواحل تتهادى في سير بطيء .. تبادل سعد التحية مع رجالها فاذا تجار ينقلون التمر والزبيب والحناء والكبريت على ظهور الجمال ليبيعوها في سلا أو فاس وكانت هذه لا تتلقى اذ ذاك تموينها

الا عن طريق سلا أو تطوان لوجود « ميناء فاس » آنذاك على مصب سبو الذي كان يحتله الأسبان .

واصل ركب سعد سيره حتى أقبل الليل فعرس قرب عين تفور بماء خصر عذب وأوقد حول خبائه نارا اصطلى بها من قوارس الليل الذي لم يكن يعكر هدوءه الرهيب الا صوت البحر في اصطخابه .. وفي الصباح استؤنف السير فوصلت القافلة عند العصر الى مدينة قد أحاطت بها الابراج هي مدينة انفا .. ولكن سعدا الذي كانت تستعجله مأموريته لم يستطع النزول ولاحظ باستغراب في حوز المدينة كثرة النمل الذي ضايق الافراس فصارت تعدو في اضطراب ..

وبعد ثلاثة أيام وصلت القافلة الى اسفى فاذا أسوار عديدة تقوم في جانبيها قصبتان تقطن فيهما بعض حظايا السلطان الراحل مولاي الرشيد واذا مرسى واسعة رابطت في ارصفتها مراكب واذا السفينة التي كانت بسلا قد وصلت لتفرغ بقية شحنتها .. وكان الميناء مملوءا بالرعايا الفرنسيين والانجليز والهولنديين والاسواق غاصة بأنواع البضائع وكان في احد جوانب المرسى ركام من الزرع في مثل ضخامة الجبل ينتظر ميعاد الوسق في مقابل السلاح والبارود الذي كان السلطان يستورده من فرنسا وهولندا ليرسله الى القلاع والحاميات ـ ولكن سعدا لم تستوقفه هذه المشاهد لأنه كان يوده ان يطوي المراحل للوصول الى مراكش ... استغرقت الرحلة بضعة أيام اخرى وسط سهول قاحلة ، وفي ذات اصيل تراءت لسعد أشجار النخيل تلف مدينة انعكست حمرة سطوحها حتى على قرص الشمس الذي كان يلتهب داميا في ميله نحو الغروب .

٨

في مراكش الحمراء

تركنا شقراء الريف بمدينة العرائش في غرفة بأحد ديورها وقد اندست تحت فراش ابنة عمها مارية عند دخول احدى الاخوات الراهبات على اثر انسلال طيفين اثنين داخل الدير تحت جنح الظلام وكانت عائشة قد تشنجت أعصابها وجمدت مفاصلها وكادت تختنق لطول مكثها حابسة انفاسها في هذا الوضع الحرج .. ولكنها كانت قوية الارادة صلبة العود لا تستسلم لليأس لا سيما وان رسالتها المقدسة تنفحها بروح التوثب والحماس .. ثم خرجت الأخت فأوصدت مارية الباب وتنفست الصعداء وعادت فاذا عائشة قد انسلت في خفة ورشاقة من تحت السرير وانبطحت فوقه تستدفىء بملمسه الوثير وكانت مارية شاحبة اللون غير انها ما لبثت ان استعادت توازنها فتوردت وجنتاها وانبعثت من ملامحها آيات الفتوة والجمال ثم وجهت مارية الخطاب الى رفيقتها في لهجة جدية قائلة : (ان وجودك ها هنا ينطوي على خطر لكلتينا .. وقد انقذت الموقف بسرعة خاطرك التي اغبطك عليها .. ولكن يجب أن تدبري حيلة تتمكنين بها من المبيت عندي كل ليلة مع القيام طول النهار بمهمتك في انحاء المدينة ، وانت تعلمين اننا محظور علينا الخروج من الدير والا تعرضنا لأشد القصاص .. وليس معنى هذا انني عازمة على المكث في هذا البيت المظلم الذي تكاد الرطوبة تفتت جدرانه

السوداء .. ولكن يجب أن تستغلي هذا المأوى الامين ريثما تتم المامورية وتبحثين بعد ذلك عن وسيلة للخلاص.. فلتبيتي الليلة معي وسأعطيك في الصباح رداء أبيض تتسربلين به كلما عدت في المساء ... ولكن يجب أن تتحري أوقات الصلاة حيث تكون الراهبات منهمكات في الأدعية والتراتيل .. اما في الصباح فسيكون خروجك غلسا ساعة فطور الراهبات .. واحذري يا عزيزتي أن تقعي بين مخالب هؤلاء الذئاب من فتيان المدينة الذين لا يصدهم اي وازع من اغواء الفريرات من الاوانس ..) ثم اطفأت مارية فتيلة الفانوس المرتجفة وكادت تستسلم للنوم لولا انها أحست بعائشة تتضور على الفراش وهي تئن وتتأوه بين الفينة والاخرى فخشيت ان تكون عائشة مريضة او أن تكون في حاجة الى شيء .. وكانت قد قدمت اليها شيئا من الفاكهة لتنقع بها غلة الجوع ريثما تبحث لها في الصباح عما تزودها به لقوت النهار .. وقد تلعثمت عائشة واحمرت وجنتاها وحمدت الله على أن الظلام يحول دون رؤية ما ارتسم على محياها وعينيها الذابلتين من آيات الهيام والشوق لخطيبها سعد الذي ما برح طيفه مخيلتها منذ فارقته .. وازدادت خجلا عند تزاحم العبرات في موقها وكادت تنفجر بالبكاء فشعرت مارية بحقيقة حالها وتظاهرت بعدم الانتباه ثم حاولت ان تخفف عن صاحبتها لوعة السهاد وحرارة الشوق بمجاذبتها الحديث حول الموضوع الذي يشغل قلبها ، وكانت عائشة أشد ما تكون شوقا لسماع ذكر حبيبها وترويح خاطرها الولهان بذكرياته المنعشة ولكن الخجل منعها من تحويل مجرى الحديث نحو الرجل الذي تعتلج جوانحها حنينا اليه .. وكانت اذا ذكرته او ذكر لها التهبت منها الاحداق وابرقت الاسرة حتى ليخيل للناظر اليها أنها محمومة من شدة التأثر ..

وبينما كانت شقراؤنا المولهة تعمل متنكرة في مدينة العرائش محاولة تحسس الاخبار عن حصون المدينة وحركة جنودها كان خطيبها سعد قد وصل الى عاصمة ابن تاشفين لمقابلة المولى اسماعيل في المهمة السرية التي كلفه بهـا القائد بن حدو .. وقد راعه ما حول المدينة من بساتين خضراء وجبال مكللة بالثلج مشمخـرة في جلبابهـا الابيض الناصع وجداول تنحدر في عروض الجبال صافية الماء نحو جنان المسرة (اي المنارة الحالية) التي كان طولها وعرضها يبلغان ثلاثة كيلومترات في ثلاثة وتضم بين أسوارها انواع الاشجار والازهار والرياحين يتوسطها قصر شامخ هو قصر « الدار البيضاء » الذي بناه المنصور الذهبي ونهر فسيح الجنبات ، وكان السلطان عبد المؤمن الموحدي قد امر ببنائها جالبا اليها المياه العذبة الخضرة في جداول هندسية محكمة تمر بالجنان لتنصب بعد ذلك في جداول رقيقة نحو « قصر البديع » الذي كانت انقاضه ما زالت غضة على أثر التقويض الذي امر به المولى اسماعيل ونقله السواري المرمرية والفستقيات والفسيفساء الى قصور الرياض الجديدة بمكناس حيث ما زال الصناع الاوربيون من الأسرى يشتغلون الى الآن .. وقد راعت سعدا عظمة المدينة الحمراء فتذكر ما حكاه له عنها القائد ابن حدو (١) .. وقد استغرب سعد كثرة هذه الامواج من النسمات البشرية التي تصطخب بها المدينة ومن الفروق البارزة بين طبقات سكانها ففيهم الارستقراطي الثري الذي يتفرج على الاسواق على صهوة جواده المطهم والمحترف المتواضع والتاجر البئيس والاجير الذي يشقى طوال النهار

---

(١) الرحالة الفرنسي الذي زارها قبل هذا التاريخ بثلاثة عقود من السنين اكد انها : اعظم من عاصمة باريس ، وان عـدد سكانها يتراوح بين خمسمائة وستمائة الف نسمة .

لياوي في المساء الى فندق تبيت البهائم بساحته ويلتف هو بجلبابه داخل غرفة وطيئة بعد ان يدفىء حلقومه بحساء الفول (البيصارة) . وكانت بأحواز المدينة قصور كثيرة يعيش فيها الأثرياء فيقفلون عليهم ابوابها خلال فصل الشتاء قاطعين كل علاقة مع الخارج حتى كأنهم دولة داخل دولة لاكتفائهم بما عندهم من أغذية وملبوس وبهائم وحمامات وافران وعبيد ..

حاول سعد الاتصال بالسلطان فاستمهله الحاجب ثلاثة ايام قضاها الفتى في زيارة المدينة وآثارها ثم نزل ذات يوم الى الساحة المجاورة للكتبية فوجدها غاصة بقوافل التجار الذين وردوا من السودان مثقلين بأحمال مسحوق الذهب فاندرج في سلكهم كغيره من الفضوليين الذين يروقهم سماع حكايات مغامرات الاسفار عبر الصحراء القاحلة فسمع أحد الرحالين يحكي انه قطع بين مراكش وتنبكتو اربعمائة مرحلة مائتان منها داخل بحار الرمل القفراء التي لا يهتدي فيها المسافرون الا بمطالع الشمس والقمر والنجوم ولا يسيرون الا خلال الليل لشدة الحر في النهار ولكن هذه الصحارى تتخللها واحات ذات خضرة وماء تأوي اليها القوافل للاستراحة من وعثاء السفر ، وتوجد بالصحراء مناجم في ملك السلطان تستخرج بعض القوافل منها الملح لنقله الى عاصمة السودان حيث تستبدل به مسحوق الذهب وعندما تصل القوافل المغربية الى السودان بعد رحلة تستغرق شهرين كاملين يقيم لها امراء السودان حفلات تكريما لسلطان المغرب ويستدر التجار من هذه الأسفار أرباحا تتجاوز احيانا اربعمائة في المائة .. وحكت جماعة انها كانت ذات يوم تسير قبيل الغروب واذا بسباع تباغتهم فانبرى أحدهم وكان قد استأنس بالسفر في الصحارى فانتزع من راسه عمامته الطويلة وصار يلوح بها في الفضاء في شكل يجعلها تتضور كالافعى فلم يسع

الاسود الا الفرار امام صورة هذا الحيوان السام الذي كانت تخشاه .. وفي صباح اليوم الثالث انسل سعد داخل المشور حيث كانت صفوف عساكر العبيد تمر في نظام امام السلطان وهو راكب على جواد ادهم متقلدا سيفه فلم يكد يرى محيا المولى اسماعيل الذي كانت تنبعث منه الهيبة والجلال وتشع عيناه ببريق الحدة والعزم حتى ارتعدت فرائصه .. وكان السلطان يتخلل الصفوف لينظم بنفسه هذا الاستعراض الذي ضم نحو ثلاثة آلاف من المشاة المسلحين . وكان صوت السلطان يرن في الفضاء جهوريا مقعرا .. ثم انتهى التسراد فدخل سعد في مؤخرة الموكب السلطاني الى القصر حيث ميعاد الاستقبال .!

٩

في طريق العودة

دخل سعد الى القصر الذي نزل فيه المولى اسماعيل بجنان « المسرة » حيث سبقه قنصل فرنسا بسلا « جان باتيست » (١) الذي جاء لبمهد لسفير فرنسي ويعرض على السلطان امداداته لطرد الاسبان من العرائش وكان هذا القنصل قد وصل منذ بضعة اسابيع وقدم اوراق اعتماده بمكناس وقد دخل الى ردهة العرش حيث ظل واقفا، وسعد ينظر من خلال ثقوب مزركشة في الحاجز الخشبي حتى دخل السلطان تسبقه التحية التقليدية من « مخازنية » العبيد في بزتهم الحريرية ، وكان المولى اسماعيل دقيق القد نحيل القامة مستطيل المحيا فاحم الشعر يشع من عينيه بريق الحيوية والعزم وكان الى هذا خفيف الروح سريع النكتة حاضر البديهة دائب العمل فلم يكد يجلس على الاريكة حتى تقدم القنصل فانحنى وقبعته في يده اجلالا للامير الذي وقف بجانبه رجل بزي عسكري اندلسي في سراويل قصيفة وصدرية قانية تعلوها شارات براقة .. وكان القنصل قد ترك ترجمانه خارج البلاط باشارة من الحاجب الذي تلقى الامر بادخاله فريدا وتولى الكولونيل مولاي العربي مهمة الترجمة .

كان السلطان يعتمد كثيرا على ابن عمه الذي جال في

---

(1) Jean Bathiste

اوربا متنكرا في بزة كهل اسباني يدعى « الدون انطوان اوكستان » وكان له ولوع بدراسة المجتمعات الغربية وتقاليدها وخاصة منها العسكرية فانخرط في سلك الجيش الاسباني حيث نال رتبة كولونيل وهم يحسبونه مسيحيا ، وعاد الى المغرب منذ اربعة عشر عاما خبيرا استخلصه السلطان لنفسه مستشارا في الشئون الاوربية يتتبع بواسطته ما يجري في القارة المجاورة .

وكان المولى اسماعيل سؤولا يفاتح زائره ويحرجه بالاسئلة فلم يكد القنصل يشير الى ملكه « لويز الرابع عشر » في معرض تمجيده حتى بادره السلطان قائلا : (بلغني ان ملككم في حرب مع هولندا وبلجيكا .. فماذا كان مصير جيوشكم ؟) فانتفض القنصل وتلعثم ثم تماسك واجاب :

« ان جيوش مولانا لويز الرابع عشر مظفرة اللواء حيثما حلت واسطول جلالته مسخر لحلفائه من ملوك الارض .. وجلالتكم في طليعة هؤلاء الحلفاء ... »

فقاطعه السلطان قائلا ـ (ولكن الذي بلغني ان الهزيمة كانت هذه المرة هي المصير لان هولندا كتلت اوربا كلها ضد ملككم .) فامتقع القنصل واحس بالعرق يتصبب باردا في حناياجسمه ولكنه غير مجرى الحديث فقال متلعثما: (ان جلالة ملكنا يقترح جعل اسطوله رهن اشارة جلالتكم لفتح العرائش واصيلا .. آملا تمتين الروابط بين البلدين ..)

وكان المولى اسماعيل يعلم ان العداء مستحكم بين عرش اسبانيا وفرنسا ويريد ان يعتمد دوما على نفسه فلا يفسح للقطع البحرية الاجنبية مجال التسرب الى المياه المغربية بعد ان قاسى الاهوال في طرد الانجليز من ثغر طنجة وهو الان يتأهب لتحرير العرائش واصيلا .. غير انه كان حكيما ذا حاسة دبلوماسية دقيقة فتحاشى الجواب ناقلا الحديث الى موضوع خطير يهم البلدين وهو تبادل الاسرى ومعبرا عن

رغبته في اقرار السلم مع ملك فرنسا وكان يعلم ان القنصل يمارس مهنة التجارة ويتقاضى من مواطنيه التجار نسبة مئوية لفائدته الخاصة ولم تكن الدولة الفرنسية قد حظرت التجارة على قناصلها الا بعد هذا التاريخ بسنتين فطلب منه السلطان تزويده بدرعين وخوذة وترسين اثنين ولفائف من الملف الاحمر لكتابه وقواده مع مطرفات حريرية ومطرزات بادر القنصل بالوعد بايرادها محاولا مفاتحة السلطان بالمفاوضة في شروط السلم، فالح هذا في المطالبة بسفير خاص يرسله ملك فرنسا لهذا الغرض فاضطر القنصل للاعتراف بانه انما جاء ليمهد سفارة «سان ـ اولون» فلاحظ الامير ان لا فائدة في التمهيد اذ بابه مفتوح في وجوه السفراء فحياه القنصل وخرج ... وكان هذا القنصل قد جاء خلفا لقنصل آخر يدعى « جان بيريي » استدعاه الملك لويز الرابع عشر على اثر معاهدة الصلح المبرمة بين فرنسا والمغرب عام ١٠٩٤ هـ اي قبل تحرير طنجة بعام واحد ولكن المعاهدة لم تنفذ لان السلطان اصر على ان يبادل ما لديه من اسرى اربعة مغاربة مقابل اسير مسيحي واحد .. وقد طالب ملك فرنسا بتسليمه نص الرسالة التي كان وجهها الرسول عليه السلام الى هرقل عظيم الروم يدعوه الى الاسلام وكان ملوك الروم قد توارثوها فظن السلطان انها عند لويز وطلبها منه بصفته وارثا لمملكة الامبراطور شارلماني .

وبمجرد ما انسحب القنصل ادخل سعد فانسحب الامير مولاي العربي وخلفه القائد احمد الوليد وكان خبر الفتى قد وصل الى السلطان فبادره بالسؤال عن طنجة واحوالها وعما وصلت اليه استعدادات خديمه ابن حدو لفتح العرائش واصيلا فاجاب سعد بان الجيش الريفي ينتظر الامر المولوي لمحاصرة المدينة فما كان من السلطان الا ان اسر

في اذن الوليد الذي انسل مليا ثم عـاد بورقة مكتوبة زاد السلطان في هامشها : (وليعلم خديمنا الارضى ان جيوش البخاري على اهبـة النزول وان مخازننا مملوءة بالسـلاح فليقدم على الحصار باذن الله وسنوافيه بالعتاد) . ثم ختم الرسالة بالطابع الشريف فاستلمها سعد برفق وقبلها والامير يعجب بشهامته وحماسه وكانت للمولى اسماعيـل بصيرة نافذة تقرأ في ملامح الاسرة وتقاسيمها ما يجول في الخاطر ، ثم انحنى سعد في خشوع ليلثم يـد السلطان الذي كـان متقلدا سيفا صقيل السنان مرصع المقبض يأتلـق ائتـلاق لحظه المشع ببريق الذكاء .. وخرج الفتى وفي قلبه نفحة من فيض هذا الملك الشهم الذي دانت له الرقاب وخضعت له المملكة عن بكرة ابيها وخطبت وده الملوك وازدحم السفراء على اعتابه ينشدون حلفه ..

كان الليل قد أناخ بكلكله القائظ المدلهم فعرج سعد على الفندق الذي نزل فيه خفراؤه حيث نام بضع ساعات قام بعدها والفجر ما زال عموده لم ينبلج فأمر باعداد الراحلـة للعودة الى طنجة وكان يعتلج شوقا الى لقيا خطيبته التـي بدأت الهواجس تنتابه في شأنها فيطيل الفكر ولا يلبث ان ينتفض مذعورا عندما تجول بخلده فكرة قاتمة ، والمحب كثير الظنون لا سيما وانه يقدر الاخطار التي تتعرض لها حبيبته ولو علم ماذا كانت تدبره شقراء الريف في تلك الآونة لامتلأ قلبه اعجابا واشفاقا .

١٠

مغامرة خلال الظلام

كانت « شقراء الريف » تهب من فراش تقاسمه مارية بدير العرائش – في غبش الفجر فتلتهم فطيرة باردة وتتسلل الى الخارج حيث تطوف متكففة في انحاء المدينة في فستان ذابل اللون كثير التراقيع وقد صبغت وجهها بحناء يلمع رواء الشباب وكانت وهي تسير منحنية في عرج مفتعل اشبه بتلك العجائز او العوانس المكتهلات اللواتي يتسكعن في الشوارع والاسواق وقد كدسن في سلالهن ما تجود به اريحية المارة من كسر الخبز القفار والفواكه المسوسة ..

خرجت عائشة ذات صباح وقد مر على وجودها بالمدينة نحو الشهرين فاتجهت كعادتها نحو السوق .. وكان البرد قارسا والضباب الندي يلف المدينة بسجفه البليل فلا تكاد تتبين وجوه الغادين والرائحين الذين استرابت عائشة تماوجهم الغريب منذ غلس هذا الصباح .. وكانت قد اضطرت الى الاختفاء في غرفة ابنة عمها في الدير لوعكة اعترتها فانقطعت صلتها بالخارج بضعة ايام وفضلت التسلل الى العراء رغم الزكام الشديد الذي كاد يخنق خيشومها ببلله اللزج .. وقد حسبت لاول وهلة ان الناس في عيد غير انها لم تكد تصل الى السوق حتى شاهدت الناس في هرج ومرج امام قصر حاكم المدينة الذي خرج ليطمئن القوم

وهو لا يزال في منامته الحريرية ينفث من عينيه اثر الكرى .. وقد اندست عائشة في غمرة المتزاحمين والمتزاحمات واصاخت باذنها لتتسمع ما يروج فاذا القوم يتحدثون ويعلقون على وصول طلائع الجيش المغربي الذي حاصر الاسواق من الجهات الثلاث ولم تكد عائشة تدرك سر هذا الهيجان حتى اختلج قلبها وابرقت اسرتها واحست بقشعريرة المباغتة تسري في جسمها البض الذي غطت تقاسيمه العاجيةالاسمال المرقعة.. ولو لمحالناس ذلكالبريق الذي اشعت به عيناها الذابلتان لايقنوا ان البراقع لا يمكن ان تخفي فتوة نابضة بحرارة الحياة اذ للعيون خلجات تنم عن وميض خلاب يخرق طلاء الاكتهال المتصنع ولكن القوم كانوا في شغل شاغل والنسوة كن يعولن في ضجيج وبين اذرعهن اطفال رضع قد لفت اطرافهم كيفما اتفق لمباغتة الخبر .. خبر الحصار !

كانت المدينة لا تحتوي بين اسوارها العتيدة سوى ثلاثة آلاف ومائتين من النسمات ما بين جنود ومدنيين ومع ذلك فلو شاهدت تماوج الناس واصطخابهم لما ترددت في تقديرهم بعدة آلاف ..

انسلت عائشة بين هذا الخضم واتجهت نحو الربض الداخلي للمدينة فاذا بافواج الجنود المثقلة بالسلاح قد انتشرت اسفل السور وفوق الابراج هؤلاء ينقلون صناديق البارود واولئك يجرون المدافع ، وآخرون ينظرون من خلال الوصاويص السامقة الى السهل الشاسع الذي خيم في افقه النائي جيش القائد ابن حدو وفي طليعته ابطال الريف.! طفقت عائشة تمشي متظاهرة بعدم الاكتراث وهي تصيخ باذنها المرهفة علها تلتقط ما يروج وعيناها لا تكادان ان تحيدا عن ناحية من السور اخفتها عن الانظار افنان متدلية

من دوحة يظهر من تفاريع جذورها انـها عمرت القرن ... وكانت مدة اسابيع تاوي خفية الى هـذه الخميلة الامينـة المتوارية عن اعين الرقباء تمكث فيها آخر النهار ثم تعـود الى الدير عندما يهجم الليل ويتراكم الظلام .. وقد تمكنت طوال هذه المدة من نقب فجوة صغيرة يسهل علـى جسمها الدقيق الانسلال منها الى الخارج ولكنهـا خشيت ان هي آوت الى مخبئها الوديع الآن في رابعة النهار ان يتنبه الجنود وان يفتضح الامر فواصلت طريقهـا محاذيـة السور وهي تحاول التقاط مـا يتسار به القـوم وادركت مـن آهـات الاستغراب والاعجاب ان القوم قد شدهتهم ضخامة الجيش وهالتهم كثرة المجانيق وآلات الحصار.. ثم عادت عائشة من حيث جاءت مقوسة الظهر متعارجة فانفمرت من جديد بين الناس الذين كانت الاسواق والازقة لا تزال مكتظة بهم .. وكانت الدكاكين مفتحة والاقوات معروضة ولكـن التعاليق المتلعثمة شغلت الناس عن البيع والشراء .. وقد احتارت عائشة في امرها مترددة في هذه الآونة الرهيبـة ، سارت بضع خطوات نحو الدير ولكنها عـادت ادراجها لاستحالـة الاتصال في رابعة النهار بمارية .. واخـيرا قر رايها علـى تنفيذ خطتها هذه الليلة ، كانت كل التصميمات التي سطرتها لاصلاح ما زودهـا به القائد مودعـة لدى صديقتها باحدى صناديق الدير .. وكانت على احر من الجمر تذهب وتجيء في حيرة ناسية ما أظهرته من تعارج وكان النهـار في هذا الفصل القائظ طويل الذيل فاستبطأت الليل وخيل اليها أن هذه الشمس اللافحة سوف لا تميل ـ لتباطئها المزعج ـ عن كبد السماء ثم سارت في غير هدى فلم تنتبه الا عندما نفحها هواء الميناء بنسيمه البارد فانتفضت وتذكرت يوم وصولها الى الناحية الاخرى من الرصيف بعـد مغامرة كادت تودي

بحياتها بين اثباج الموج وقد خشيت ان يرمقها ذلك الشيخ الذي تعقبها بين دروب المدينة ليلة وصولها فهرولت متعارجة نحو ربوة اندست بين اعشابها منبطحة ... وبعد فترة استراحة قامت وهي تمطط اطرافها المتوعكة في نظرات شاردة نحو عرض البحر الذي هالتها وفرة السفن الرابضة فيه فذعرت وتذكرت حصار المدينة وقرب الجيش الريفي من السور واومض لحظها المعتلج وانبرت متجهة نحو المدينة حيث انتظرت ميقات الصلاة لتنسل داخل الدير .. وكان الدهليز مقفرا فتوغلت فيه دون ان تكترث بالاصطدام باحدى الاخوات لان سحنتها كانت تدل على انها من اولئك المتسولات اللواتي كثيرا ما يطرقن باب الدير انتجاعا للقوت او المبيت ... ولم تكد تشعر بفراغ السرداب الذي توجد فيه غرفة مارية حتى فتحت الباب واقفلته وراءها في احتراس ثم مالت الى صندوق اخرجت منه اوراقا دستها في جيب صدريتها وتناولت ورقة رسمت عليها بضع كلمات وخرجت تهرول في جنح الظلام فمرت بالسوق ثم بالساحة الكبرى حتى وصلت الى ناحية السور الذي كان اسفله خاليا حيث لجأ الجند الى الابراج والقلاع للتناوب على الحراسة ... وكانت الحلوكة دامسة والضباب يكاد يمسك الارض فيزيد في كثافة الظلام ... وما هي الا لحظة حتى انسلت شقراء الريف الجريئة وراء شجرة متهدلة الاغصان وسط سكون لا تقطعه سوى اصداء الصهيل التي تموجها السهول الشاسعة الممتدة وراء السور .

١١

مباغتة اللقـاء

ليل بهيم ونسيم بليل واضواء تتأرجح هنا وهناك من خلال اخبية ارتجلت في العراء المحاذي للبحر .. واشباح تتحرك متنقلة بين الخيام تتعقبها ظلالها المترامية فوق منعكس النور المنبعث من المواقد التـي اججها فرسان الريف وسط المعسكر للطبخ والاصطلاء من قوارس النسائم التـي تهب باردة من جهة البحر .. وقد امتاز افراك (١) القائد بضخامة اوتاده وبسعة تفاريعه التي كانت صورة مصغرة عن فسفاط المنصور ... وكنت ترى في احدى زوايا المحلة آلات ضخمة ومجانيق تحف بها كتل متشابكة من بنادق « البارود » التي وصلت من آسفي منذ بضعة اشهر .

وكان السكون ضاربا اطنابه في انحاء المعسكر يتخلله صهيل او نداء خافت لا يلبث ان تبدده اصداء الهدير المتعالي من جهة المحيط وقد آوى الجند الى مضاجعهم الا ثلة تتناوب على الحراسة في الاطراف المتصلـة بالسور ... وكانت مدينة العرائش هادئة يلفها الظلام في سربال الكثيف حتى ليخيل للمرء ان نامة الحياة قد انقطعت منها وفجأة تراءى

---

(١) هي خيمة السلطان الكبرى وتحتوي على مجموع اخبية .

لحارس طيف يتضور بين ثنايا الظلام بعد ان انبعث من احدى جهات السور في احتراس.. ولم يشك الحارس لحظة ان الطيف يتجه نحو المعسكر ولكنه تظاهر بعدم الانتباه ريثما تتقارب المسافة ولشد ما كانت دهشته عندما لاحظ ان انسلال الطيف وتخفيه يتناقصان بقدر ما يقترب من المحلة وان هذا الشبح الذي بدات قامته تتضح في استطالتها ونحولتها كان يختلس النظرات الى ابراج السور اكثر مما ينظر الى جهة المعسكر فازداد الحارس استفرابا وتظاهر بعدم الاكتراث وهو يسترق النظر من طرف خفي دون ان ينقطع عن الجيئة والذهاب ... وما لبث هذا الشخص الطارق ان اتأدت خطاه واعتدلت قامته في مشية طبيعية وهو لا يأبه لنقرات الحذاء الذي طفق الحارس يضرب به اديم الارض استرعاء لنظر الزائر الغريب .. فلم يشك الحارس ان لهذا الشخص شأنا فاقترب منه وباغته بهجمة زلت لها قدم الشبح حتى كاد يسقط لولا تماسكه .. وفجأة ارتفع ستار اخباء القائد فخرج شاب يستفسر عن سبب الرجة .. وتقاربت دقات قلبه عندما ارسل الطيف آهات الاندهاش في نبرات رخوة لم تكد تصل الى صماخه تعاريجها اللدنة ورنتها الرقيقة حتى ارتجف فقد تبلورت له خلال الظلام صورة لم تبرح مخيلته منذ شهرين قضاهما في سهاد موصل .. وكان الفتاة عرفته هي الاخرى فانعقد لسانها وانتفضت وظل الحبيبان يلهثان من مباغتة اللقاء واحس كل منهما وكأنه امام مشهد من تلك المشاهد التي كان يترسمها خياله المكدود الموله ولولا قشعريرة البرد التي عقبت حرارة اللقاء لما شكا لحظة بأنهما في حلم ... ثم امتزج الشبحان الاهيفان في عناق صامت لم يتخلله سوى نبضات قلبين تفجرت عواطفهما المعتلجة في دمع حار .

.. وفي تلك الآونة كان قائد الجيش ابو العباس ابن حدو قد اوشك على اتمام صلاة العشاء مع طائفة من قواده.. ثم ارفض الجميع في سكون فخرج القائد وفي اعقابه اعوانه ـ ليتفقد حالة المعسكر الهاجع .. متسربلا ببرنس من الوبر معتما بعقال ابيض لفه لفا هندسيا حـــول شاشية حمراء يغرسها في رأسه الدقيق .. وكان اذا وصلت نحنحته الى كل صماخ ترتجف القلوب لجلال شخصه .. ولم تكد اصداء هذه النحنحة تطرق اسماع السامرين حتى انتشرت حلقهم وتسلل كل فريق الى مربضه عدا طيفين ظـلا بمكمنهما في غفوة ..

... واصل القائد تجواله خـــلال الاخبية فساقته قدماه الى اطراف المحلة شمالا وتراءت له من بعد ظلال اسوار انكشفت ابراجها بفتة تحت ضياء قمر توارى اول الليـــل خلف سجف من الضباب المتولد عن ابخرة البحر ثم ما لبث ان ظهر فارسل اشعة فضية انعكس نورها على قطرات الندى المترقرقة فوق الاديم .. ولم يعبأ الخطيبان المتعانقان بهذه الاشعة المباغتة لان كهربة اللقاء كانت قد فجرت في عيونهما الذاهلة نورا (فوسفوريا) يتلألأ بغير مصباح فكان شعـــاع القمر في لحاظ العشيقين كبدر يأتلق في رابعة النهار فلا يضيء سوى نفسه .. ولكن كان في كل مـــن القلبين جنـــاح احتكره هيام قدسي هو حب الوطن المهدد والتفاني في خدمة قضية مقدسة فلم تلبث الشفـــاه والمعاصم والصدور ان افتكت فاتجه الحبيبان للقاء القائد .. ولم تكد عائشة تصل الى الخباء حتى عرتها قشعريرة لجلال الرجل الذي كان لها بمثابة الوالد الحنون والمربي الصارم .. ولكن الخيمة كانت فارغة والصمت رهيبا فدخل سعد في عقب الفتاة وجلسا على حافة السريـــر ينتظران عـــودة الشيخ ... وظهرت

عائشة تحت نور القنديل المتلألىء معتلجة الوجنات محمرة الاحداق مرتخية المفاصل تحت تأثير الموقف .. وكان خفرها قد عاد اليها بشكل غريب فاصطبغ وجهها بلون قرمزي وصارت تتحاشى النظر الى خطيبها الذي كان يرنو اليها بطرف هائم ثم يختلس النظرات نحو باب الخباء في انتظار ابي العباس . ولكن طال الانتظار ولم يعد ابو العباس فعيل صبر الخطيبين وبدأ القلق يساورهما وكان القمر قد عاد الى الاختفاء فانغمر المعسكر كما كان اول الليل في حلوكة دامسة .. وكان سعد وعائشة يقدران مبلغ جراة القائد فخشيا ان يكون قد غامر في جهة السور فأصابه سوء .

١٢

شهاب ناري يخترق الظلام

انعطفت مارية نحو غرفتها بدير الراهبات بعد ان انهى هؤلاء تراتيلهن المملة وكانت تشعر بقنوط من هذه الحياة المستعارة التي تضطرها الى التزام حركة مفتعلة وتلحين مقاطيع دينية بلهجة لاتينية فجة وكان بوسعها ان ترافق ابنة عمها عائشة الى قلب المدينة ولكنها فضلت الاستمرار في تحمل هذا العبء ريثما يصل الجيش المغربي ... كانت تستسلم لهذه الخواطر وهي على أحر من الجمر شوقا الى صديقتها التي روحت عنها هذا الملل وكان نظرها شاردا يجول ولا يرى وكأنها استبطأت عودة الفتاة .. واذا بلحظها يقع على ورقة مطوية بجانب قوائم السرير لم تكد تراها حتى تهافتت وهي ترتجف لشعورها بطروء حدث جديد .. قرأت بتلهف فسكنت واشع لحظها المعسول بوميض الغبطة وسرى في جسمها البض تيار الحماسة فكادت تهرول نحو باب الدير للالتحاق بشقراء الريف الى حيث عرس الجيش ولكنها كبتت عواطفها لان بقاءها داخل المدينة متنكرة في زي راهبة قد يعود بالخير فلا تراق الدماء لتحرير هذه الجوهرة الثمينة التي ظلت ترسف في اغلال الاحتلال منذ ان سلمها الى الاسبان محمد الشيخ السعدي .. وثار اذ ذاك في نفس مارية بركان من الحنق والغيظ لانها ـ بعد احتكاكها الطويل بهذه الشعبة من اللاتين ـ اصبحت تمقتهم اشد المقت لما

يضمرونه للمغرب استجابة لملكتهم « ايزابيلا الكاثوليكية » التي أمرتهم منذ عام ١٥٠٤ م بعدم الانقطاع عن غزو البلاد الافريقية ، وان تنس مارية لا تنسى ما قاساه المغاربة من هذه الروح الخبيثة بينما تسمع عن روح التفاهم التي يبديها البرتغاليون احيانا في مدينة « الجديدة » التي ما زالوا يحتلونها منذ قرنين، وقد اخبرها والدها بأنه تحادث يوما مع بعض رعايا البرتغال فزعم انهم لا ينسون انهم اصهار السلطان المغرب الشريف السعدي محمد المهدي الذي تزوج بعد تحريره مدينة اكادير بابنة واليها البرتغالي « كوترين دومونروي » والحقيقة التي لم تغرب عن ذهن مارية هي ان البرتغاليين انما كانوا يسرون حسوا في ارتغاء لانهم ما نسوا يوم المخازن المشؤوم الذي مات فيه ملكهم الشاب « الدون سبستيان » فسقطت الدولة البرتغالية وانصهرت في مملكة الاسبان طوال ستين سنة .. ولم تشعر مارية الا وهي تصرخ بأعلى صوتها مناجية نفسها (.. ان هؤلاء المستعمرين ملة واحدة .. وهم جميعا في المكر سواء .) ...

في منتصف تلك الليلة كان القائد ابو العباس قد وصل الى طرف السور المحاذي للبحر يتحسس بنفسه مواقع العدو وما ان بلغ خميلة متوارية عن الانظار حتى أنار فانوسا خافتا يقلبه في جوانب السور كأنه يبحث عن شيء ، وطال تفتيشه بين الاعشاب وهو يتنقل من مكان لآخر في احتراس ينبطح تارة ويقف تارة اخرى متقصيا بين اطراف الكلأ الندي .. وكانت تترامى من خلال نور الفتيلة الذابلة نظراته الحادة المتوثبة وتجاعيد محياه في قلق زائد ... ثم طرقت سمعه فجأة نبرات ضخم الليل صداها في غير وضوح فانتفض ثم تماسك لان الاصوات كانت تنبعث من الجهة الاخرى للسور .. غير انه لاحظ باستغراب ان

لموجات الصوت تكاد تنبثق من أسفل السور لا من أعلاه فاصاخ بسمعه المرهف واذا صوت يتحدث في خفوت برطانة وكان القائد قد ألم بالاسبانية كغيره من كبار الدولة المغربية لكثرة اتصالهم بسكان شبه الجزيرة الايبيرية ... غير انه لم يتبين كثيرا ما يروج فاخفى المصباح تحت برنسه وانقلب نحو السور يتتبع مصدر الصوت ، ولشد ما كانت دهشته عندما تضخمت في صماخه النبرات فاتضحت العبارات وقد خشي القائد ان تنم عنه انفاسه التي تحدث شبه شخير لوعكة الزكام فحبس النفس واختلس خطوات فاذا به امام فجوة دقيقة قد نقبت في السور فتوارى بين الاعشاب وكله آذان .. ولكن الرجل كان يتحدث في لهجة القرطبيين الشعبية فلم يفهم القائد عدة كلمات واضطربت المعاني في فكره وادرك بصعوبة ان الرجل كان يحدث رفيقا له عن شبح رآه متسللا خلال الظلام من هذا النقب الصغير فلاحظ الآخر انه قد يكون هو الدون ما خيلي المكلف بشؤون الجاسوسية وهو طويل نحيل فأمن صاحبه على هاتين الصفتين وكادا يوقنان بهوية الشبح.. ولكنهما زيادة في الاحتراس قررا التناوب على حراسة النقب الذي قد ينتبه العدو الى وجوده فيحاول الانسلال منه .. وقد استغربا وجود هذه الثغرة التي لم تكن في السور قبل اسبوع ... وكان القائد يستمع ولحيته ترقص من التأثر والانفعال وقد حمد هذه الصدفة التي اوقفته على هذا السر غير ان خواطر متضاربة تزاحمت على فكره المكدود من طول الارق وتساءل ماذا يا ترى يكون ذلك الشبح اذا كانت قصة الدون المذكور مجرد خيال ؟ اليست « شقراء الريف » فارعة القد طويلة القامة مع نحافة ونحول؟ فكيف لا تكون هي ؟؟ ولم يكد يذكر عائشة حتى اختلج قلبه لانه كان يحبها محبة الوالد الشفيق وكم انبته نفسه طوال

ليال قضاها بيضاء على الزج بهذه الفتاة في مغامرة خطيرة.. بدا يشعر ان ذلك الشبح لا يمكن ان يكون غيرها لما يعلمه من ولوعها بالوسائل الجريئة حيث يظهر انهـا لم تكتف بقذف « الاوراق » من فوق السور في المكان المصطلح عليه بل بحثت عن وسيلة لايصالها بنفسها الى مقر قيادة الجيش ... وهنا شعر ابو العباس بالشوق الى ابنته فانعطف فـي احتراس نحو المعسكر خلال سجف الضباب المتصاعدة من البحر وكان الجو ناديا والبرد قارسا والسكون مخيما على السهل المنحدر نحو المحيط ونور القمر يتحجب رويدا رويدا فيلف انـحاء المخيم في ظلام تخرقه هنا وهناك اشعة باهتة تنفلت مـن خلال السحاب الكثيف فتنعكس على الاديم الاجرد البليـل وتنشر فوق البسيط الوادع بقعا من نور .. وقد حاول القائد ان يتحاشى في سيره نقط الضياء المرتسمة علـى الارض ولكنه اضطر الى طرق بعضها فتجلى شبحه المتسلل. ولم يكن قد ابتعد كثيرا عن السور فشعر كأن سهما قد مر في سرعة خاطفة بازاء اذنه واحس بطنين في دماغه وبـدم سخين ينبثق من فوق صدغه الايسر وبغشاوة تغطي عينيه فتهالك على الارض بدون وعي .. ولم يلبث الظلام ان اسدل ستاره الرهيب وساد سكون لا يقطعه الا هدير يحمله التيار البارد في هبوبه من جهة « بحر الظلمات » ...

١٣

العدو يترصد

عيل صبر « شقراء الريف » وخطيبها فقاما يبحثان عن القائد ابي العباس موجسين خيفة من ابطائه الفريب .. ولم يريدا اثارة ضجة خلال المعسكر فسريا في تسلل متعثرين نحو جهة السور لعلمهما بان القائد لا يمكن ان يتغيب هذه المدة الطويلة الا لسبب خطير .. بحثا في كل الانحاء دون ان يقتربا من السور حيث مواقع العدو تترامى خلالها ظلال من اشباح متحركة .. ولكن خطورة الموقف حدتهما الى المجازفة فانبطحا وهما يتحسسان جوانب الاديم زحفا على بطنيهما .. وكان المعسكر قد لف في سربال رهيب من الحلوكة الصامتة .. ولكن نامة خافتة كانت تنبعث من ناحية قريبة من السور .. فلم يسع الخطيبين الا مواصلة الزحف نحو مصدر هذا الصوت الفريب .. طفقا يزحفان مدى خطوات فانقلبت النامة انينا تبلورت نبراته فارتجف الشبحان المتسللان وتصبب العرق من جسميهما واندفعا دون احتراس نحو ناحية الصوت فاذا شبح ممدد لم يكد سعد يجسه حتى اصطدمت يداه بمائع حار يتقاطر من وجهه فمال يحاول التعرف اليه فلم يتمالك عن الاضطراب لان الرجل لم يكن سوى القائد ابي العباس.. كان ملتوياعلى نفسه وكانه فقد كل حراك الالم فسارع سعد الى حمل الشيخ غير عابىء بما قد يستهدفه من رشقات السهام .. وفعلا لم

يكد الخطيبان المنطبقان ـ يخرجان من منطقة الظلام ليمرا وسط فجوة من الضياء حتى اخترق الجو شهاب ملتهب في صفير حاد ولكن الانفعال المتزايد واشتغال خاطرهما عن حياة والدهما جعلهما يستخفان الطوارىء مواصلين سيرهما المتعثر خلال الظلام حيث بلغا خباء القائد بعد لأي فاذا الضوء لا يزال يرتجف تحت تيار النسيم .. مد ابو العباس على الفراش وهو فاقد وعيه ملطخ الصدغ بدم لزج قرمزي شاحب الوجه متشنج العضلات ولو لم يكن نفسه يصاعد في خفوت لحسباه في عداد الاموات .. كان سعد اكثر اضطرابا من عائشة تعلوه صفرة وتتجلى على محياه حيرة فطفق يذهب ويجيء وهو لا يدري ماذا يصنع لانه تذكر بغتة انه مكلف بالحراسة وان اطراف المعسكر اصبحت عرضة لاغارة الاعداء المترصدين .. وكان الفجر قد اوشك على الانبلاج وانبرى مؤذن المحلة يرتل ابياتا لابن الفارض في الحان مشجية وفجأة فتح القائد عينيه عندما هبت عائشة لمسح اخاديد الدم بقطعة من حرير بللتها بماء بارد وقد لاحظت ان رشقة السهم لم تزد على انها لفحت بلهيبها بشرة الصدغ في انقذافها الخاطف فأطارت ظاهر الادمة ونزف دم تجمد تحت النسائم القارسة .. غير ان القائد كان يشعر ايضا بالم ممض في ركبته اليمنى التي اصيبت برضوض عندما تهالك على الارض ولكن ابا العباس لم يكد يشعر بوجود «شقراء الريف» عند راسه حتى ابرقت اسرته واومض لحظة ببصيص الغبطة واشار الى الفتاة بالجلوس على حافة السرير حيث ضمها الى صدره وعيناه مغرورقتان بالدموع .. وكانت هذه اول مرة شاهدت عائشة الدمع يتفجر من مآقي القائد فلم تتمالك عن الاجهاش بالبكاء .. بكاء الفرح باللقاء ، وبعد فترة استعاد القائد توازنه فاستوى جالسا على السرير محمر اللحظ من

الارق يجاذب ابنته حديثا هامسا وهو يتفحص مجموعة الاوراق والتصميمات التي كانت امامه .. وكان القائد ينظر الى الفتاة وهي تشرح له رسوما غامضة وهو يعجب بتفتق ذكائها ودقة ملاحظتها وتعروه بين الفينة والفينة ارتجافة مكبوتة عندما تشير الفتاة في معرض حديثها الى ما استهدفته من اخطار ... ثم تحفزت عائشة للقيام وكأنه شعر بما يجول في خاطرها فبادرها بقوله (اظن ان مهمتك داخل العرائش قد انقضت يا بنتي .. وكنت .. اريد ان تظلي على اتصال بما يجري داخل المدينة لتوافينا بذلك .. ولكن لعل عودتك اليها اصبحت محفوفة بالاخطار لا تسمح لي نفسي بتعريضك اليها ..) فثارت الحمية في نفس الجاسوسة الشقراء وتوردت وجنتاها حرارة وحماسة فازدادت جمالا واجابت قائلة في لهجة المؤاخذة : انت تعرف يا ابت اني غير عابئة بامتطاء الاخطار في سبيل قضية مقدسة .. وما حياتي بجانب قطعة ثمينة من الوطن العزيز ترزح تحت اعباء قاسية .. ثم نظرت الى سعد وكان قد خف الى الخارج مهلة يسيرة ـ لايقاظ احد الحراس فاشرق وجهها وعرتها حمرة الهيام وازدادت خجلا عندما لاحظت نظرات القائد ترمقها في حنان .. ارادت ان تهمس لخطيبها بشيء فتلعثمت والتفتت الى القائد قائلة : اني افضل الرجوع الى المدينة .. وساعود بحول الله في ليلة مقبلة صحبة شخص عزيز اسعفني الحظ بالتعرف اليه هناك حيث قضيت معه اسعد الساعات .. وكانت تتكلم وتنظر من طرف خفي الى خطيبها الذي ظهر عليه اثر الارتباك وعراه شحوب وهو يضبط الاضطراب الذي ران على قلبه المولع وساورته الهواجس ـ والمحب كثير الظنون ـ وكانت الدهشة والحيرة تجاذبان القائد الذي ايقن مع ذلك بان هذا

الشخص العزيز ليس سوى امراة .. ولكن من يا ترى يمكن ان تكون .. وفجأة انقدح من مخيلته خاطر عندما التفتت عائشة الى سعد قائلة : (وازيدك أن هذا الشخص قريب اليك .. بل هو من أقرب الناس اليك .) فصاح سعد وهو لا يتمالك من التأثر : (.. انهـا اختي مارية فأيـن هي ؟ وكيف هي ؟ وماذا حدث لها ؟) وطفق يقذف بأسئلة مرتبكة وهو لا يكاد يصدق ما يسمع .. ولكن عائشة تحفزت مـن جديد الى النهوض وهي تقول : (لقد حان وقت الرجوع الى ما وراء السور فداعي الحذر يضطرني الى الانسلال قبـل انبلاج عمود الصباح .. ولتكونا مطمئنين .. فلست فـي حاجة الى تسلق السور للالتحاق بمارية المختفية في احدى الأديرة .. في زي راهبـة . (هنـا ارتجف القـائد وعرته الدهشة) .. وقد اضطرت الى التنكر مخافة الوقوع مـن جديد في شباك الوحش الذي اختطفها ..) ولشد ما كانت دهشة الشقراء عندما اجابها القائد في هدوء قائلا : (لا مجال للعودة هذه الليلة يا عزيزتي لان الثغرة التي جئت منها قد تنبه الى وجودها الاعداء ..) .

١٤

حظ عاثـر

... مرت ثلاثة اشهر على وصـول جيش القائد ابي العباس احمد بن حدو البطوئي الى ارباض العرائش حيـث عرس محاصرا اسوار المدينة من جهاتها الثلاث .

وفي مساء ليلة من ليالي محرم عام ١١٠١ هبت عاصفة هوجاء فكنت لا تسمع خلال السهل المنحدر نحو المحيط الا زئير الزوبعة وصفير التيارات المتعاكسة وكان البرد قارسا والظلام دامسا والاشباح تتحرك في ثنايـا المعسكر لتقويـم الاوتاد التي اقتلعتها الرياح ثم تفتقت السماء عن مطر مدرار فتراكم الوحل في اطراف المعسكر وبين الخيـام وانصبت نحو البحر سيول حمراء تجرف في طريقها ما يصدمها من اوعار.. وفي تلك الآونة كانشبح ربع القوام مكتنز العضلات يسير تحت وابل المطر وقد انغمس الى ركبتيه في مزيـج لزج من الطين والماء ومع ذلك كان الشبح يواصل سيره غير عابىء بالصيب الذي بلغ العظم بعد ان بلل الثياب وجمـد المفاصل وكان يتباعد ما وسعه الامر عن النور الباهت الذي ترتجف فتائله في مخابع الاسوار وابراج الحصون واتجه في احتراس نحو الطريق المحاذية للبحر فلم يكد يصل الى السور حتى انحاز الى أسفله محاولا اتقاء قوارس العاصفة وكـان يلهث من طول ما مشى في هذه الاوحال المضنية وشعر بعقدة الاجهاد تقطع نفسه وبالريح تصاعد الى بطنه فتلوي علـى الاوصال ليا موجعا ولكن بريق عينيه والبسمة العريضة التي افتر عنها ثغره الدقيق كانـا ينمان عـن حرارة وحمـاسة تغطيان كل ألم مهما كان ممضـا ...

كان محمد شابا في مطلع العقد الثالث من عمره قد عاش شطرا من طفولته في بلاد جبالة فتربى فيحضن والدين غريرين تربية بسيطة في استقامة فطرية ولم يكد يراهق حتى نزل الى الحاضرة فانفمر في بيئة جديدة اولع فيها بالمغامرات ثم تقاذفته حواضر المغرب واندس بين الاوساط الاسبانية بالعرائش واصيلا فحذق لغة القوم واستانس بعوائدهم وقلدهم في المظهر محتفظا باصالة مخبره الموسوم بطابع البداوة ...

وكان القائد ابو العباس يتخير اعوانه الاقربين من بين الشباب المشبع بروح المغامرة مع الاستقامة فلم يكد يجالس هذا الشاب ذات يوم حتى انعطف نحوه متوسما فيه بطولة مغمورة وما لبث ان استخلصه لنفسه الى جانب سعد واوعز اليه بالسفر الى اصيلا لاستطلاع احوالها وعندما ازف وقت الهجوم على العرائش استدعاه للاسهام في تحريرها قبل التعريج على اصيلا .. ولكن القائد الذي منع شقراء الريف من العودة الى العرائش ظل قلقا على مارية .. وكان قد لاحظ ان الشوق والقلق يتزايدان في نفس محمد خطيب مارية الذي كان متغيبا منذ شهور فراعه خبر اختطاف حبيبته وما تلاقيه في سبيل الحفاظ على عرضها وحبها .

.. مال محمد الى جوانب السور يتحسسها بكلتا يديه بحثا عن الثغرة التي كانت قد نقبتها شقراء الريف منذ ثلاثة اشهر ولكن بحثه ذهب سدى.. واستأنف تنقيبه مستعينا بنور فانوسه الذابل الذي عاد الريح ينفذ اليه من جوانب الزجاج فيهدد الفتيلة بالانطفاء ـ غير انه لم يعثر على اية ثغرة وفجاة تذكر انه راى في اسفل السور غورا دقيقا فاستغرب وجوده بين قاعدة السور وانقدح في مخيلته خاطر فابرقت اسرته واندفع يبحث من جديد عن الغور فنقره وتردد صدى خافت ايقن محمد معه ان العدو لم يتمكن من

ايصاد الثغرة الا من ناحية واحدة وكانت وسائل الايصاد مرتجلة فلم يكد يضرب الضربة الاولى بقطعة حديد حتى تناثر التراب من الجهة الاخرى وانفتحت الفجوة وكان الريح لا يزال يهب في صفير صاخب فانسل بعد اجهاد لان الثغرة تضايقت عن جسمه المكتنز، وتلفت يمنة ويسرة فوجد المكان خاليا واتجه نحو المدينة مستعينا بواعيته على استذكار منعرجات الطرق ودروب المدينة وقد خشي ان يصطدم بحارس وان كان قد تزيا بزي صياد اسباني الا ان وجوده في الخارج بعد منتصف الليل قد يكون مثار شبهة فطفق يعدو وعيناه تتحسسان خلال الظلام فلم يصطدم بأحد لأن ازدواج حلوكة الليل بثورة العاصفة حدا الناس الى الانكماش والقبوع في عقر دورهم رغم ولوع الاسبان بالسمر على انغام القيثارة وتلاحين المغنين . وبغتة لاح من بعيد شبح مستطيل يتضور خلال حلوكة كثيفة فخشي أن يكون احد حراس الليل فاندس داخل عتبة غائرة امام باب وطيئة حيث حبس انفاسه حتى مر الشبح الذي كان يتسلل ملتفتا محاذرا . وخيل الى محمد ان الشبح متسربل بثوب ابيض وان آثار الاضطراب بادية عليه ولكنه لم يدقق النظر لانه خشي ان ينتبه الشبح الى مخبئه فيقع في محذور . . وكان الشخص يسير نحو الوجهة التي جاء منها محمد .

وبعد لحظات كان كل من الشبحين قد امتزجا بالظلام في غمرة من الامطار والاوعار ولو عرف محمد هوية ذلك الشبح لما واصل سراه وسط خضم من الاخطار . . .

١٥

دعابة غير مقصودة

طفق محمد يخترق الازقة ويطوي الشوارع متسللا في ليل تتخلل سواده تيارات ذات صفير .. ومن حسن حظه انه اختار هذه الليلة وتحرى فورة هـذه العاصفة الهوجاء ليقوم بمهمته الخطيرة في بلد يحترس مستعمروه منذ ان ضيق عليهم الريفيون الخناق بحصارهم القاسي .. وكـان خبر الثغرة التي وجدت مفتوحـة في السور قـد طرق اسماع السكان واثار الرعب في نفوسهم حيث ايقنوا ان للاعـداء اعوانا وعيونا داخل المدينة فصاروا يمكرون بكـل شخص جديد لا يعرفونه ويضمنه اثنان على الاقل من سكان المدينة التي اعلنت فيها حالة الطوارىء وانبث في انحائها الجنود.. وكان يعرف هذا ولكن حبه لمارية وشوقه اليها اطبق عينيه بغشاوة تبدد معها اشباح الخطر .. وكان الشاب يسير الى غير هدى ويتقاذفه الظلام وقلبه يكاد ينقلع حنينا الى خطيبته التي تخيل الان قوامها الممشوق ومحياها الناصع المستدير وشفتيها اللتين صبغهما بلون خلاب تفجر ماء الشباب بين عضلات اهابها الغض .. ولم يكد طيف حبيبته يمثل لخياله المكدود في شكله الساحر حتى انقدح زند الهيام في جوانحه المعتلجة فصار يعدو غير عابىء بالنقرات التي يحدثها حذاؤه فوق الرصيف.. ولم يكن يقصد هدفا معينا لانه لا يذكر موقع الدير الذي لجأت اليه حبيبته كما انه يعلم ان الساعة غـير

مواتية لطرق باب الدير لا سيما وانه خاص بالجنس اللطيف ولكنه مع ذلك يعدو منقادا لفورة العواطف التي اثارها في نفسه شعور بالقرب من موطن الحبيب ! وكان قد توقف والزوبعة قد خفت وسكون الليل قد بدا يضخم اصداء النأمات مهما دقت .. فتردد صدى حذائه صاخبا وهو في غمرة من الوله .. وكان الوحل قد تراكم على رصيف بعض الازقة فلم يشعر محمد الا وقد انبطح على وجهه في انزلاقة صارخة بلغ صداها آذان احد حراس الليل كان يتناعس في بعض منعرجات الشارع فخف مهرولا وهو يصوب نور فانوسه الى جهة الصدى .. وكان محمد قد هب من مكانه مذعورا وقد استعاد وعيه على اثر الصدمة والصراخ الذي وصل الى سمعه وتظاهر بعدم الاكتراث مستأنفا سيره المتئد وقد ثقلت حركاته بما علق بثيابه من ارطال الوحل .. ولم يكد يعرج على منعطف مظلم حتى اطلق ساقيه للريح وصفارة الحارس يتعقبه صداها الذي ضاعفته في اذنه خطورة الموقف .. وما فتئت الصفارات ان رنت في كل الجهات مؤذنة بحالة الخطر فاندس محمد في مدخل غائر وحبس انفاسه منتظرا ما يكون وكانت حركة الحراس قد ايقظت سكان الحي فأشعل النور من خلال بعض النوافذ وفتحت عدة ابواب انبرى من خلالها فتيان قد هرولوا فزعين يستفسرون عن الخبر وقد حسب الناس ان جيش الحصار قد اغتنم الظلمة وهدوء العاصفة فخرق السور وتسلق الابراج .. وقد انذهل الحراس من آثار صفيرهم الذي لم يقصدوا به سوى تبادل الانذار فيما بينهم ولكن اعصاب السكان كانت متوترة الى حد أنهم لا يكادون يحسون بحركة غير اعتيادية الا ويهبون من مضاجعهم مذعورين .. ولم يسع محمدا الا ان خلع معطفا قد يفضحه بلله واخفاه في غور العتبة التي كان متواريا فيها

ثم اندس بين الناس يسأل هو ايضا عن الخبر متزملا في المنامة التي كان يلبسها تحت المعطف.. ولم يشعر الناس الا وقد تعالت صيحة الفزع من ورائهم فانقلبوا فاذا امرأة تشير بكلتا يديها مرعدة الفرائص الى شبح ممدود خلال الظلام في غور احدى الابواب وكان الشبح جامـــدا لا يتحرك فوقف الحراس صفين ذات اليمين وذات اليسار مهددين الشخص باطلاق النار اذا هو لم يستسلم .. ولكن الشبح الـذي زاد الظلام منظره رهبة لم ينبس ببنت شفة وبقي ممددا فـي رقة ونحول يكاد يلتصق معهما بالارض .. ثم انبرت نسوة شجعهن ازدحام الناس فرجون من الحراس عدم اطلاق النار لان الشبح قد يكون متسولا انحله الجوع واطبقت على واعيته قوارس البرد .. فتقدم احد الحراس متسللا حتى وصل الى الشبح الجامد وحاول أن يحركه ولكنه لم يجـد سوى معطف اسود قد نفخه المطر وكان محمد يتبع هـذا المشهد وهو مطبق بكفيه على فمه وقد غلبه الضحك لانه علم من اول وهلة ان الشبح الممدد لم يكن سوى معطفه .. وهنا صار النـاس يزمجرون وانقلب جمهورهم الذي كـان متشنج الاعصاب ضد الحراس يشبعهم تأنيبا على هذه الضجة التي لم يكن لها موجب ثم عاد القوم كل الى منزله.. ومن حسن الحظ ان الجلبة كانت قد وصلت الى أحياء مجاورة فخف منها بعض هواة المغامرة فانغمر محمد فيهم كأنه واحد منهم وتظاهر بانه عائد الى منزله وهو في حيرة وفجأة ترامى له من بعيد نور ذابل يرتجف داخل مصباح من زجاج قد كتبت عليه حروف أدرك منها محمد في الحين ان هنالك فندقا يمكن ان يأوي اليه فتقدم نحوه بخطى متئدة ، ولم يكد يدخل الى ساحته حتى اعترضه خادم متناعس وسأله عن مراده فأجابه محمد متذمرا من جلبة حراس الليل الذين يحدثون في الحي

المجاور ضجة منعته من النوم فترك منزله مفضلا قضاء بقية الليل في هذا الفندق .. وكان الشاب يتكلم بلهجة اسبانية قحة فاستانس به الخادم لا سيما وانه رآه لا يزال في منامته وعيناه ذابلتان من اثر النوم .. وازداد الخادم استئناسا بالزائر المتناعس عندما دس هذا في كفه قطعة ذهبية نزلت بردا وسلاما على قلب الخادم ففسح الطريق أمام محمد وهو يطوي قامته القصيرة في انحناءة التحية لهذا « الكبليرو » الاريحي .. وقاده وهو يتهلل فرحا وقد طار عن اجفانه ثقل الكرى ـ الى غرفة في الطابق الاول كانت مخصصة للهيئة الارستقراطية من السياح .. وقبل ان يغادر الخادم الغرفة وجه اليه محمد الخطاب قائلا :

(.. اني اريد الا يعلم احد بوجودي في هذا الفندق لا سيما زوجتي التي ضايقتني في الايام الاخيرة فاغتنمت انا فرصة قيام جلبة بحينا في وقت كان الشجار بيني وبينها قد بلغ اشده .. فآويت الى فندقكم الوديع الذي اريد ان اقضي فيه بضعة ايام بعيدا عنها حتى تنزجر وتعود الى رشدها) ..

وكان الخادم يعلم ان هذا النوع من الخلاف بين الزوجين كان شيئا عاديا في الاوساط العائلية الاسبانية فاطمأن الى مقالة محمد الذي كانت تظهر على محياه الجميل معالم نبل لا تسمح بتطرق ادنى شك في هويته .

١٦

استعداد للهجـوم

في نفس الليلة التي انسل فيها محمد من ثغرة السور الى مدينة العرائش للبحث عن خطيبته مارية كان شبح آخر يتجـه متسربلا برداء أبيض نحو الجهة المقابلة وما ان وصل الـى البطحاء المحاذية حتى صار يزحف على بطنه بين الأعشـاب البليلة وكان المطر قد انقطع ولكن الوحل المتراكم اضطر الطيف الى القيام لمواصلة السير في تستر احتراسا من عيون الرقباء .. وكان السكون ضاربا أطنابه والابراج هادئة كأنها خالية من نأمة الحياة .. توارى الشبـح خلف دوحـة متهدلـة الأغصان فاذا فجوة منقوبة في السور لم يكد نظر الشبح يقع عليها حتى تنفس الصعداء وتسلل منها في الحين الى السهل الذي خيم فيه جيش الريف .. وكان هذا الشخص الذي اخفى الظلام الكثيف تقاسيم وجهه يسير بسرعة ويلتفت يمنة ويسرة في حركة عصبية ثم ما لبث أن هدأ روعه واتزنت مشيته عندما مر الى الناحية الأخرى من السور. ومع ذلك ظل يرقب من طرف خفي الأبراج التي كان النور يرتجف باهتا من خلال نوافذها الماكرة وسرى بخطى حثيثة نحـو المعسكر الهاجع الذي لفته الحلوكة في سربالها الأسود وكادت قدماه تلتويان بين ركام الوحل ولكنه كان يتماسك .. ثـم امتزج بالظلام بين ثنايا الخيام .

*

وفي صباح الغد كان محمد لا يزال مستغرقا في سبات

عميق بأحد فنادق المدينة ولم يكن من عادته أن يستمر في نومه الى الضحى ولكن السرى بين الأوحال كان قد اجهد مفاصله وورم قدميه فلم يكد يتمدد فوق الفراش الوثير حتى استسلم للكرى ... غير أن حرارة الشمس النافذة من خلال الشرفة المطلة على الشارع ايقظته فتمطط وهو ذاهل اللحظ ذابل الطرف مثقل الأجفان فما كاد يفتح عينيه ويجيلهما في هذا الظرف الغريب حتى عادت اليه ذكريات الامس فانتفض وقفز الى الارض فازداد اضطرابا عندما لاحظ أن منامته هي كل ما لديه من ثياب وأنه يعسر عليه أن يخرج بها وحدها فأخذته الحيرة وطفق يذرع أرض الغرفة ذهابا وجيئة ويتوقف بين الفينة والفينة ليصيخ بأذنيه ويطل على الشارع من خصاص النافذة حيث صار يخيل اليه أن كل صوت أو حركة غير عادية انما يوجهان الى شخصه المريب .. واخيرا سمع نقرا خفيفا على الباب فخف اليه وهو يغالب هواجسه ويتجلد ثم فتحه فاذا خادم الامس يحمل ابريقا من الشاي وفطائر قد لفت في زلال البيض فهدأ روع الفتى .. وضع الخادم المائدة ازاء السرير ثم عاد ادراجه ولكن محمدا ناداه وأسر في اذنه شيئا وهو يشير الى سحنته والى الشارع ثم دس في كفه عددا من الريالات فابرقت أسرة الخادم وخرج يعدو وهو يتعثر في ذيوله.. ولم يكد محمد يلتهم فطيرة ويحتسي كأسا من الشاي حتى عاد الخادم متأبطا لفافة وضعها بجانب السرير ثم حاول أن يقدم الى محمد ما فضل له من نقود فأرجعها هذا اليه .. وبعد فترة وجيزة كان محمد قد تنكر في زي شاب اسباني متضايق من البنطلون والمعطف اللذين كادا يعرقلان مشيته لصغر حجمهما بالنسبة لقوامه المكتنز .. ولكنه نزل درجات السلم الخشبي في تؤدة وهو يتظاهر بفتل طرفي شاربه فوجد ساحة الفندق خالية لأن الخدم كانوا منهمكين في اعداد الفطور وترتيب

الأواني فغادر الفندق ولم يكد يخرج منه حتى حار في أي الوجهتين يتخذ لأن الطرق والمنعرجات التبست عليه وأن كان قد قضى مدة غير يسيرة في هذه المدينة ، ثم استسلم آخر الأمر لقدميه فانعطف ذات اليمين .. وكان الناس يفدون ويروحون في حركة حثيثة والجنود يملأون الشارع متقلدين بنادقهم تتدلى من مناطقهم خروز جلدية .. طفق يسير متظاهرا بالتوجه الى هدف معين وهو في الحقيقة يسير في غير هدى وقد بدأ يتضايق لان بعض الانظار كانت تلتفت فتطيل النظر في سحنته الارستقراطية البراقة ثم تهز كتفيها وتواصل طريقها .. ثم طرق اذنيه رنين جرس يطن من خلال منارة وطيئة فاتجه نحو بناية هادئة لم يكد يتحفز للدخول اليها حتى اصطدم براهب قد احدودب ظهره فسأله عن دير « سانت ـ كاترين » فأجابه في صوت خافت من فرط الهرم انه تركه وراءه فرجع محمد أدراجه مهتديا بنعوت الشيخ وما لبث أن وصل الى درب مظلم تكاد جدرانه تتماسك من أعلى فلا تترك الا شريطا دقيقا من النور ولكنه استغرب الضجيج الذي وصل اليه صداه من خلال باب الدير الذي كان مفتوحا على مصراعيه والذي وقفت تحت خوخته ثلة من الفضوليات يسترقن السمع .. ثم اقترب محمد وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ولم يكد يسمع الاسم المتردد على الأفواه حتى جمد الدم في عروقه ولم يكن قد تبين بالضبط ما حدث وانما فهم أن (أختا) حديثة العهد بالانخراط في الدير افتقدتها الرئيسة في الصباح فلم تعثر لها على أثر .. وكان اسم هذه « الأخت » مارية .. وقد عرى محمدا شحوب وتصبب العرق باردا بلل بنطلونه فخشي أن تنتبه النسوة العاطلات الى ارتباكه فولى الادبار وهو يكاد يسقط على الارض من الانفعال .. ولكن قلوب المولهين سريعة الاستذكار فلم يلبث أن تذكر أنه شاهد في الليلة الماضية شبحا يتسلل

خلال الظلام في الطريق التي جاء منها فتسارعت دقات قلبه واعتلجت وجنتاه ثم ما لبث أن انتفض عندما تذكر انه خيل اليه أن الشبح كان متسربلا برداء أبيض فلم يبق لديه شك في هوية ذلك الطيف الذي صار خياله الآن يرسم عنه شتى الصور الساحرة وان كان لم يتبين من ملامحه ولا قوامه شيئا بسبب الحلوكة .. ثم عاد محمد أدراجه وهو حيران يغالب عواطفه ويكبت شعوره الذي كاد يتفجر بكاء لولا حرج الموقف .. وكان النهار قد تماثل الى الانتصاف فكثر الازدحام في الأسواق وتحدث الناس في ذعر ظاهر عن طروء حركة غير اعتيادية في الجيش المحاصر .. فازداد اضطراب محمد وخشي أن تكون مارية قد أصابها سوء ولكنه هدأ لأنها لو كانت ضبطت خلال الليل لذاع خبرها وشاع.. وخيل الى الفتى أن النهار قد استطال فاستبطأ الليل حيث قر عزمه على المجازفة في انحاء السور رغم استنفار الجند الاسباني المفاجيء ومسارعته الى الالتحاق بالأبراج والحصون استعدادا للنزال !.

١٧

تلفيـم وهجـوم !

.. تقدمت ثلة من الجنود يقودها سعد الى ناحية السور المحاذية للعمران وقد لفهم الظلام في ردائه القاتم فكنت لا تتبين منهم سوى اشباح تزحف على الأديم .. وكان الجو هادئا والنسيم يهب عليلا من جهة البحر ممزوجا بريح شرقية هبت تلك الليلة على خلاف المعتاد فجففت الأوحال التـي تراكمت من جراء أمطار الليلة الفارطة ... وكان القائد أبو العباس ينتقل بين الأخبية ويصدر أوامره في صوت جهوري يضخم سكون الليل نبراته فتعقبه قرقعة آلات الحصـار والمجانيق النارية وكان قائد الجيش يتعمد اثارة هذه الحركة الصاخبة وان كان ظلام الليل لا يسمح بالهجوم لشغل العدو عن الدسيسة التي يبيتها له كوكبة من الجنود .

وقد تزايدت الحلوكة حول الاسوار والابراج التي عمـد الاسبان الى اطفاء نورها حتى لا تكون هدفا للمدافع المغربية..

وكانت في معسكر ابي العباس فتاتان احداهما وهي مارية تشرف في أحد الأخبية على اعداد العقاقير والضمادات وتدفئة الماء تأهبا لاسعاف ما قد تسفر عنه الاغارة الوشيكة من جرحى ... بينمـا خفت عائشة « شقراء الريف » الى الناحية التي كان يعمل بها خطيبها سعد لترشده الى المواقع الضعيفة في السور .. وكانت قد درست شكلية السـور المواجه للبحر من الداخل فلاحظت ما يبدو على سطحه من

صدوع وشقوق لكثرة ما تلقاه من قذائف مراكب الاسبان خلال اغارتهم الاولى عليه .. وكان القوم قد نقلوا صناديق الألغام والبارود فبادروا تحت اشراف ضباط الريف الى حفر خنادق دقيقة مستطيلة تتصل بدعائم السور حيث دسوا مواد التدمير .. وقد ربطوا بكل لغم وكل صرة من البارود حبلا طويل الذيل ثم عادوا الى المعسكر بعد ان قضوا بضع ساعات .. وبقي سعد وخطيبته في مؤخرة القافلة فطاف على اطراف الحبال ليقدح الزند ويشعله فيها ثم عادا ادراجهما متسللين بين ثنايا الظلام ، وكان الليل قد مال الى الانبلاج وبدأت خيوط الحلوكة تنكشف رويدا رويدا عن عمود الفجر الكاذب فكان الناظر من المعسكر الى ناحية السور يتبين فوق الأديم نقطا معتلجة تسري في جوف الظلام في تباطؤ .. وما لبثت شهب نارية أن انبعثت من ابراج السور نحو هذه النقط النيرة التي حسبها حماة الأسوار من الاسبان فوانيس يستضيء بنورها أفراد من طليعة الهجوم فصاروا يرشقونهم بقذائفهم النارية ولكن النقط النيرة التي كانت اشبه بعيون تتوقد خلال الظلام واصلت سيرها البطيء نحو السور غير عابئة بقذائف الاسبان !.. ويخيل للناظر الى هذه البطحاء انها بحيرة انعكست على صفحتها صور النجوم المتلألئة في قبة السماء !.. ما كادت العيون النارية تصل بعد سراها الخفيف الى جهة السور حتى كان الصبح قد انبثق ولكن غبش الغلس حال دون تبين حقيقتها لأن طرف السور المحاذي للبحر كان خاليا لا يجازف الاسبان بمدافعهم فوق سطحه المتصدع . وما هي الا لمحة حتى تفرقعت أسافل السور وتقوضت أركانه وتصاعدت في عنان السماء السنة النار تتخللها اعمدة الدخان وارتجت الأبراج القائمة بالاطراف الاخرى من السور الذي تفتحت فيه ثغرات تفور ببركان من اللهب القاني تراءت من خلالها افواج الجنود

تهرول مذعورة نحو ساحة المدينة لتتحصن وراء حواجز مرتجلة .. ولكن ابطال الاسبان ظلوا ثابتين في مراكزهم فوق الابراج وكان الهجوم المباغت والخطر الداهم ألهبا في نفوسهم الأبية عواطف الحماس فثاروا كالأسود الضارية اذا هوجم عرينها وصوبوا افواه مدافعهم الثقيلة الى نحور الجنود الريفية التي كانت تتبع حركة الأعداء فلم تكد تنبثق الطلقة الأولى حتى تناثر عقد الجيش المغربي وظلت المدافع تضرب في غير هدف .. ولكن بعض الجنود فاجأتهم مناورة العدو فسقطوا في الميدان ضحايا لشظايا الرصاص.. ولم يكد رماة الاسبان يحولون مدافعهم نحو الجبهة التي انعطف نحوها ابطال الريف حتى انبرى جنود الانقاذ واحتملوا بين اذرعهم المفتولة عشرات الجرحى مولين الادبار نحو خباء التمريض حيث عرجت عائشة قبيل الهجوم لتعين ابنة عمها مارية .. وكانت طائفة اخرى من الجند المغربي قد حركت آلات حصارها وسلاليمها وتسلقت السور من نواحي مختلفة لتهاجم الرماة في ابراجهم فاختلط الحابل بالنابل والتفت الساق بالساق في التحام دام فظيع لا تسمع اثناءه الا قرقعة الأسنة وصليل الرماح يتخللها تدحرج المتلاحمين من اعلى السور .. وكان الفرسان والمشاة الريفيون الذين نفذوا الى المدينة من ثغرات السور المتهدم يتعقبون فلول الحامية الاسبانية المنهزمة التي فر معظمها الى حصن « القبيبات » الذي بناه المنصور السعدي في ربض المدينة ..

.. وفي تلك الآونة كان سعد يتخلل جثث الضحايا الاسبان وسط انين موجع وهو ينتفض انتفاض العصفور بلله القطر .. وكان يفحص ذات اليمين وذات اليسار كانه يبحث عن شخص فلم يعثر على ما يريد .. ثم انعرج في اعقاب الجيش المغربي موغلا في انحاء المدينة المحررة وهو يستغرب

عدم وجود صهره محمد خطيب مارية الذي هب ليبحث عنها في دير القديسة « كاترين » في الليلة التي فرت فيها والتحقت بمعسكر ابي العباس .. ولكنه حمد الله على انه لم يجد جثة محمد بين القتلى او الجرحى وهو يعلم شهامته وجراته لذا ظن انه لا بد قائم في تلك الآونة بمهمة .. غير انه ما لبث أن ساوره القلق مخافة أن يكون الشاب قد ضبط او اصابه سوء من قبل بدء الهجوم ..

١٨

الانتصار ..

مرت سنة كاملة على تحرير العرائش قضاها طرف الجيش في البناء والترميم بينما انصرف فريق آخر لحصار اصيلا .!

وكانت حامية العرائش قد فرت غداة حررت المدينة الى قلعة « القبيبات » حيث حاولت التحصن ، واندس محمد بين الفلول الاسبانية المنهزمة كأنه واحد منها وكان قواد الجيش المتحصن خجلين وجلين لانهم تركوا وراءهم كثيرا من الجرحى والعجزة في انسحابهم الحثيث وقد تظاهر محمد بالسخط والحنق والفيرة فصار يلهب شعور الاسبان وقد خشي ان يطول حصارهم في هذا الحصن الذي كانوا قد اودعوا فيه كميات وفيرة من الزاد ، فعمد الى تحريك ابائهم وكانوا ذوي شهامة وفروسية فلم يروا بدا من ان يوفدوا في اليوم الثاني رسولا يقترح الاستسلام ويطلب « الامان » تخليصا لذويهم من ذل الرق والاسار.. وتظاهر محمد بأنه يعرف شيئا من لغة البلاد فكان هو الرسول .. ولم يكد يغادر باب القلعة حتى توقف مترددا كأنه نسي شيئا ثم عاد ادراجه وقابل امير الجيش الاسباني ليطلب منه مفتاح الحصن متعللا بأن عادة العرب ان لا يؤمنوا المستسلم الا اذا سلمهم مفتاح المدينة او الحصن.. وقد اختلق هذه الاكذوبة لانه خشي ان يتنبه جيش الحصار الى هويته فيعدلوا عن

الاستسلام لذا راى من الاحوط اخذ المفتاح ومع ذلك حاول اخفاء هويته فتقنع وفتح الباب وسار ملوحا بعلم ابيض يخترق صفوف الجيش الريفي حتى وصل الى خباء ابي العباس كاشفا عن وجهه فبغت القوم وكان بينهم اخته عائشة وخطيبها سعد وخطيبته مارية التي لم تصدق عينيها فكادت تترامى على صدره شوقا وحنينا ولكنها تماسكت وابرقت عيناها بوميض الهيام ..!

.. ولم تكد الشمس تميل الى الغروب حتى كان ابو العباس قد أسر نحو الالفين من الاسبان سيقوا الى المدينة حيث رصد لحراستهم كتيبة مسلحة بينما اطلق سراح راهبات دير القديسة « كاترين » اللواتي بهتن عندما شاهدن « اختهن » مارية تتهادى في دلال بجانب القائد فهبت لعناقهن واحدة واحدة ورافقتهن الى الدير محاولة طمأنتهن وتزويدهن بما يحتجن اليه .. وكن مشدوهات حائرات لانهن لم يعلمن شيئا عن الحصار ولا عن الهجوم حتى فوجئن في عقر ديرهن من طرف الجند المغربي الذي ساقهن في احترام الى خباء القائد .

وكان فيلق من الجند يجر مدافع العدو المهزوم التي بلغت زهاء المائتين مع مقادير ضخمة من العتاد وصناديق البارود .

وفي غداة اليوم الثاني بدا معظم الجيش زحفه نحو مدينة أصيلا التي اراد ان يباغتها قبل ان يصل اليها خبر الهزيمة وتبادر الى اخذ اهبة الدفاع .. ولكن افرادا من حامية العرائش لم يكن يعنيهم سوى النجاة بانفسهم فلم يكادوا يشعرون ببوادر الانهزام حتى انعطفوا خارج الارباض واطلقوا لافراسهم الأعنة في خبب مجهد نحو مدينة اصيلا

التي ذعر اهلها فاوصدوا الابواب وسلحوا الابراج واستعدوا للهجوم ...

وقد سبق الجيش كل من « شقراء الريف » وابنة عمها مارية على فرسين مطهمين الى أصيلا في زي راهبتين تنتميان لدير القديسة « كاترينة » .. ولم تكادا تصلان حتى لاحظتا آثار الجلبة والاضطراب فتظاهرتا بالفزع مستنجدتين ضد العدو الذي يطاردهما ففتح جنديان من حماة المدينة خوخة صغيرة انسلت منها الراهبتان وفرائصهما مرعدة هلعا وذعرا وبعد ساعات وصل الجيش الريفي فبدأ الحصار .. ومرت شهور كانت الراهبتان تبذلان خلالها قصارى الجهد لبث الرعب في النفوس بما تحكيانه عن بطولة الجيش المغربي وفظاعة قذائفه ومدمراته وكانت اعصاب القوم قد توترت من طول الحصار ونفاد القوت وتلاوح اشباح مواخر القرصنة المغربية بين الفينة والفينة في افق المحيط فبدأ التذمر يدب من عامة الناس الى صفوف الجيش وقد اعتزم قائد الحامية آخر الامر الاستسلام واوفد رسلا الى القائد يطلب « الامان » فأمنهم على شرط الخضوع لقانون البلاد ، ولكن لم يكد الرسل يرجعون الى قائد الحامية الاسبانية بهذه الشروط حتى غير رايه وجمع رؤساء البحر وامرهم باعداد السفن للجلاء .. وكانت عائشة ومارية تتبعان ما يجري داخل المدينة فسرهما قرب ارتفاع هذا الكابوس وكان في وسعهما ان يبلغا الجيش ما اعتزمه الاسبان ولكنهما ادركتا ان جلاء الاسبان في غمرة الليل من شأنه ان يحقن كثيرا من الدماء ..

.. وفي أصيل ذات يوم تلقى سكان المدينة الأمر من قائد الحامية بالتجمع في الميناء بعد حمل ما خف من المتاع .. وكانت السفن قد وصلت في نفس اليوم وشاع

خبر الجلاء في المدينة فنزلت الراهبتان المتنكرتان الى الميناء في جملة القوم الذين غصت بجموعهم المتماوجة رحاب الارصفة في ضجيج وعويل .. وعندما خيم الظلام بدأ القوم يصعدون الى ظهر المراكب في حسرة ونحيب وقد ساعدهم على الانسحاب تواري القمر تحت سجف من الضباب الكثيف ، وبينما كان الاسبان منصرفين الى انفسهم وقد دميت قلوبهم من الم فراق موطن استأنسوا بمرابعه الخصبة عقودا من السنين ـ انسلت الفتاتان في احتراس نحو المدينة المقفرة فانسلتا من احدى الابواب موليتين وجههما شطر خباء القائد الذي لم يكد يعلم بنبأ الجلاء حتى اندفع كالاسد ودوى صوته الجهوري في انحاء المعسكر مستنفرا الجنود الذين هرعوا نحو المدينة في اعقاب القائد حاملين مشاعل التحرير .

ولم ينتبه احد الى اربعة اشباح انزوى كل زوج منهم على حدة للاحتفال في غمرة من العناق بليلة النصر التي كانت ايضا ليلة زفاف ..!

*